الفان رقم 4

العدد ١٢ | ٣ آب ٢٠٢٤

أمم للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

سجـال مفتوح على هيئة مطبوعة تصدر عن أمم للتوثيق والأبحاث

عن صديقي #سعيد_الجن:
«المُحافَظَةُ على أطْلالِ «الدَّوْلَة» يَقْتَضي،
في عِدادِ ما يَقْتَضي، تَوْهينَ «الدّوَيْلَةِ» وإضْعافَها.
أثْمانُ التَّوهينِ بَخْسَةٌ مَهْما بَدَت، لِلْوَهْلَةِ الأولى، باهِظَةً...».

لقاء مع الرئيس الجديد لائتلاف الديمقراطيين اللبنانيين جاد الأخوي:

سـنقاوم بالثقافة، سـنقاوم بالفن، سنقاوم بالفكر، سنقاوم بإحقــاق العدالــة، سنقــاوم بالحريــة

بـرَع فـي الإعـلام، وعشِـقَ السياسـة منـذ نعومـة أظافـره، مـن الجنـود المجهوليـن فـي ثـورة الأرز (ثـورة ١٤ آذار)، آمـن بوطنـه وأحبّـه، علـى خُطـى والـده شـريف الأخـوي، صـوت الإنسـانية فـي الإذاعـة اللبنانيـة خـلال بدايـات الحـرب الأهليـة اللبنانيـة، لُيُرشـد اللبنانييـن الـى الأمـان علـى الطرقـات أثنـاء انتقالهـم مـن أماكـن سـكنهم إلـى أعمالهـم، مـن خـلال عبارتـه الشـهيرة التـي كان يبثّهـا يوميًّـا، وعلـى مـدار السـاعة مـن الإذاعـة اللبنانيـة الرسـمية: «سـالكة وآمنـة». تمتـع بلباقـة والدتـه يمـن زيتـون الأخـوي وكياسـتها التـي رسـمت عبـر أثيـر الإذاعـة اللبنانيـة علـى مـدى حوالـى الأربعيـن عامًـا عذوبـة الكلمـات ونسْـج النغـم فـي الجِبـال الصوتيـة بصوتهـا الرقيـق.

إنـه جـاد شـريف الأخـوي، الرئيـس الجديـد لائتـلاف الديمقراطييـن اللبنانييـن، وكان معـه هـذا اللقـاء.

• أريد أن أبدأ بعلاقتك مع لقمان سليم وكيف بدأت هذه العلاقة؟

- بـدأت علاقتـي مـع لُقمـان فـي العـام ٢٠٠٣ أو ٢٠٠٤، عبـر سـمير قصيـر الـذي كان صديقًـا قريبًـا للقمـان. قـال لـي سـمير ذات يـوم أريـد أن نـزور، أنـا وأنـت، شـخصًا فـي الضاحيـة. أتينـا إلـى منزلـه وتحدّثنـا فـي الكثيـر مـن الأمـور، بخاصَّـةً فـي موضـوع مجـزرة صبـرا وشـاتيلا. أنـا كنـتُ فـي فتـرة وقـوع المجـزرة أعمـل مـع الصليـب الأحمـر الدولـي حينَهـا، فـي مستشـفى غـزّة داخـل المخيّـم، وكُنـتُ مـن الذيـن دفنـوا الشُّـهداء والضَّحايـا الذيـن سـقطوا فـي المجـزرة. وكان لُقمـان يعمـل علـى إخـراج فيلـم وثائقـي حـول المجـزرة.

ثـم سـافرت أنـا وكُنـتُ ألتقـي بلُقمـان كُلَّمـا أزور لُبنـان. دائمًـا كانـت لديـه أفـكار متقدّمـة بشـكلٍ مُلفـت. وكنـتُ علـى علـم بالنشـاطات الثقافيـة التـي تُقيمُهـا جمعيـة "أمـم"، لكـن فـي فتـرة تأسـيس الائتـلاف أنـا كُنـتُ خـارج لُبنـان. إلـى أن عُـدتُ إلـى لبنـان وحصلـت علـى وظيفـة فـي وزارة الداخليـة، والتقيـت بـه عـدّة مـرات. وأذكـر قبـل اغتيالـه بفتـرة قصيـرة كُنّا فـي عشـاءٍ فقلـتُ لـه: «بـدّك تنتبـه لحالَـك»، فقـال لـي: «إنـتَ بـدّك تنتبـه لحالَـك. أنـا سـقفي عالـي كتيـر، إنـتَ مـا حـدَن سـامع فيـك فبـدّك تنتبـه ع حالَـك». هـذه علاقتـي مـع لُقمـان باختصـار.

• لماذا إئتلاف الديمقراطيين اللبنانيين؟

- فـي ٧ حزيـران ٢٠٠٧ بـدأت تُعقـد لقـاءات فـي دارة آل سـليم فـي الغبيـري تمخـض عنهـا فـي مـا بعـد تأسـيس جمعيـة باسـم «جماعـة الديمقراطييـن اللبنانييـن» (جـدل)، قامـت بالعديـد مـن اللقـاءات والنـدوات التـي تسـعى الـى بلـورة خيـار شـيعي وطنـي يسـعى نحـو الدولـة المدنيـة بعيـد مـن الترهيـب والتخويـن، شـارك فـي هـذه اللقـاءات العديـد مـن الشـخصيات. وفـي ١٤ نيسـان ٢٠١٤ تـمّ تعديـل بيـان العلـم والخبـر للجمعيـة المسـمّاة «جماعـة الديمقراطييـن اللبنانييـن» (جـدل)

وأصبحـت «ائتـلاف الديمقراطييـن اللبنانييـن» فـي محاولـة جديـدة لمأسسـة وتوحيـد المواقـف اللبنانيـة الشـيعية والعمـل كمجموعـة موحـدة تعمـل فـي أفـق وطنـي ومدنـي بمواجهـة الإرهـاب والتطـرف واحتـرام العقـد الاجتماعـي والدسـتور، وعـدم الانفتـاح علـى تحالفـات خـارج إطـار الدولـة اللبنانيـة.

اسـتمر الائتـلاف فـي عقـد اللقـاءات الأسـبوعية والنـدوات وإصـدار البيانـات المؤكّـدة علـى الخيـار الوطنـي اللبنانـي للشـيعة والرافـض لـكل أشـكال التبعيـة للخـارج والهيمنـة علـى الداخـل. وفـي ثـورة ١٧ تشـرين شـارك الائتـلاف بفعاليـة وتعـرّض رئيسـه لقمـان سـليم للتخويـن والتهديـد فـي ١١ كانـون الأول ٢٠١٩ مـن خـلال محاصـرة خيمـة كان متواجـدًا فيهـا فـي سـاحة الشـهداء، ثـم مـن خـلال تنظيـم تَجَمُّـع داخِـلَ حديقـة دارتـه فـي حـارة حريـك جـرى اتهامـه ونعتُـه خلالهـا بِعِبـاراتِ التَّخويـن والشَّـتيمَة. ثـم ليـل ١٢ كانـون الأول عندمـا قـام الخَفافيـشُ أنْفُسُـهُم بإلصـاق شـعاراتِ التَّخويـن والتهديـدِ بالقتـل علـى سـورِ الـدارة ومَداخِلِهـا.

فـي ٤ شـباط ٢٠٢١ تـمّ اغتيـالِ جسـد لقمـان سـليم علـى أيـدي مجرميـن حاقديـن، وانتقـل إلـى الفـردوس الأعلـى، لكـن أفـكاره ورؤيـاه وأمانيـه وتطلعاتـه، مترسّـخة فـي مـا قالـه وكتَبـه، لا سـيّما مـا وثّقـه فـي أيـام ثـورة ١٧ تشـرين كبـابٍ لخَـلاص لبنـان مـن الهيمنـة والاسـتئثار والفسـاد والقتـل والإرهـاب والإفـلات مـن العقـاب.

وفـي سـبيل اسـتمرارية هـذا المشـروع الوطنـي اللبنانـي نحـن هنـا لتحمّـل المسـؤولية وإكمـال العمـل وفـق المبـادئ الرئيسـية التـي بُنـي عليهـا الائتـلاف ولا سـيما نهائيـة الكيـان اللبنانـي، فنحـن نعتبـر أنفسـنا أصحـاب مصلحـة ببقـاء هـذا الكيـان علـى اعتبـار أن الطائفـة الشـيعية تـمّ الاعتـراف بهـا مـع تأسـيس دولـة لبنـان الكبيـر، فنهضنـا بلبنـان ونهـض لبنـان بنـا، كمـا نؤكـد علـى احتـرام الدسـتور والطائـف والبقـاء تحـت مظلـة الشـرعية العربيـة والدوليـة وتطبيـق القـرارات الدوليـة بكافـة قراراتهـا ومندرجاتهـا.

• بصفتـك الرّئيـس الجديـد للائتـلاف؛ كيـف تـرى نفسـك مـع الائتـلاف وكيـف تـرى الائتـلاف معـك؟ أو مـاذا تنتظـر أنـت مـن الائتـلاف ومـاذا ينتظـر الائتـلاف منـك؟

- بعـد ١٧ تشـرين توافقنـا علـى الانتقـال مـن الخيـار الشـيعي الوطنـي الـى الخيـار الوطنـي إيمانًـا منّـا بـأن لا طائفـة أو مذهـب يعمـل للمسـاواة بيـن اللبنانييـن. نحـنُ أصحـاب توجُّـه وطنـي، والـذي نُطالـبُ بـه يُطالـبُ بـه كُلُّ مواطـن لبنانـي مـن كافـة الفرقـاء والمذاهـب والأديـان، وهـو حـق للجميـع.

تطبيـق الدسـتور والطّائـف هـو الأولويـة، بعـد ١٥ سـنة مـن الحـرب وخسـارة مـا يزيـد عـن مئـة ألـف قتيـل، و١٧ ألـف مفقـود ومئـات الألـوف مـن الجرحـى أنجـز اللبنانيـون اتفـاق الطائـف الـذي

عن أثمان ملَل انتظار الحرب الشاملة

فـي الوقـت الـذي تظـلّ البـلاد فـي أيامهـا ولياليهـا أسـيرة انتظـار القـرارات الكبـرى وحروبهـا المدمّـرة، واللحظـات المصيريّـة المسـتمرة منـذ عقـود والـرد والـرد علـى الـرد، والخطـاب الـذي يسـتتبع الخطـاب، والتلميـح بالحـرب الكبـرى مـن هنـا والتغريـدة الفخـور بالمعركـة الشـاملة مـن هنـاك، وصـاروخ مـن هنـا وغـارة مـن هنـاك، تسـتمر حياتنـا فـي دفـع أثمـان تقـرر أن تكـون غيـر منظـورة...

كثيـرة هـي الأمـور التي لا يُفـرد لهـا، أو يخنقها، قامـوس المعـارك المصيريـة مكانًـا بيـن كلماتـه ومفرداتـه، ومنهـا اسـتذكار ضـرورة الوصـول إلـى العدالـة فـي قضيـة تفجيـر مرفـأ بيـروت فـي ٤ آب ٢٠٢٠ والـذي تُصـادف ذكـراه الرابعـة مـع صـدور هـذا العـدد مـن «الفـان رقـم ٤»، القضيـة التـي اصطـدم بحـث ضحاياهـا، وكلّنـا منهـم، عـن العدالـة التـي تحصّـل لهـم حقوقهـم، بالتهديـد بالحـروب الأهليـة واسـتحضار حشـود المقاتليـن المتأهبيـن لزحزحـة الجبـال ورميهـا فـوق صدورهـم.

أن تجـبّ انتظـارات الحـروب الشـاملة والتحضيـر لهـا وإعـداد عدّتهـا مـن ذخيـرة، ونيتـرات وجنـود، قضيـة تفجيـر عاصمـة وتركها فريسـة لسـحابة الفطـر العملاقـة يعنـي أن حقّ النـاس فـي الحصـول علـى الأمـان الاجتماعـي وعلـى التعليـم الجيـد والطبابـة، كمـا فـي الحق بإبـداء الـرأي وغيرهـا مـن الحقـوق المشـروعة، موهوبـة للتضحيـة بهـا علـى مذبـح الخيـارات الاسـتراتيجية التـي لا ناقـة للنـاس فيهـا ولا جمـل. أمـا فـي حـال صـادف أن أشـار أحـد مـن المتضرّريـن إلـى حقّـه فـي ممارسـة الحيـاة بشـكلها الطبيعـي، والـذي يشـكّل الخـوف علـى أحبائـه وابنائـه أحـد هواجسـها، سـوف يعرّضـه ذلـك للـ«تأديـب»، أو مـا دُرج علـى تسـميته «السحسـوح» عنـد جماعـة النهـي عـن «المنكـر»، فـي سـبيل أن يكـون ذلـك دافعًـا علـى تقويـم أي سـلوك خـارج قاعـدة السـمع والطاعـة وتـرداد أهزوجـة الانتصـارات، التـي للمفارقـة، قـد تكـون علامـة إضافيـة فـي امتحانـات مدرسـية تشـكّل درجـة اسـتلحاق بركـب التميُّـز والفـرادة وأوهامهـا.

مقابـل كل ذلـك، نـرى أن علينـا واجـب الاسـتمرار فـي ممارسـة حقنـا فـي الاعتـراض والمطالبـة بالعدالـة والخـوف علـى حيواتنـا ومسـتقبلنا مـن أن تلتهمهـا سـحابة فطـر أخرى، عملاقـة، تلـك التـي قـد تأتينـا علـى شـكل اغتيـالات أو تفجيـرات أو أهازيـج انتصـارات فارغـة، أو غيرهـا مـن وسـائل القمـع والتطويـع والعدميـة.

محتويات العدد

لقاء مع الرئيس الجديد لائتلاف الديمقراطيين اللبنانيين جاد الأخوي: ..... صفحة ١و٢

لماذا التشديد على الدستور والطائف؟ ..... صفحة ٢

ثقافةُ «السَّحسوح» حينَ يَغدو «السَّحسوح» ثقافةً مُمانِعةً ..... صفحة ٣و٤

هكذا دفَع طلاب الجنوب أحد أثمان «حرب المساندة»...(أحمد خواجة) ..... صفحة ٥و٦

هل لا يزال ممكناً أن يخرج من الطائفة الشيعية مشروعٌ سياسيٌّ معارض للثنائي؟ (علي خليفة) ..... صفحة ٧و٨

«حزب الله» أو مسار التحوُّل إلى المافيا المنظَّمة، عهد حسن نصر الله (محمد عثمان) ..... صفحة ٨و٩

إحياء الشعائر الحسينية، الأصالة مقابل التوظيف السياسي، بريتال نموذجًا (عادل اسماعيل) ..... صفحة ١٠و١١

الجيوبولتيك الإيراني وحصّة لبنان منه (أحمد مطر) ..... صفحة ١٢

يرتقي الى مستوى ميثاق وطني جديد يضمن المساواة بين جميع اللبنانيين. واعترف المسلمون بلبنان ككيان، كما اعترف المسيحيون بعروبة لُبنان.

لكن اتّفاق الطّائف لم يُطبّق بحذافيره، ولو طُبِّق بحذافيره لما وصلنا إلى ما نحنُ عليه. الذي طُبّق عمليًا هو «الاتّفاق الثُلاثي»، وهو التسمية التمويهيّة للمحاصصة. من هُنا، جاء إصرارنا على تطبيق اتفاق الطائف وجمع أكبر عدد ممكن من اللبنانيين العابرين للطوائف للنهوض بمواطن أولويته الوطن وليس المذهب أو الطائفة.

• هل يسعى الائتلاف إلى تتويج النَّشاطات من خلال خوض الانتخابات؟

- أنا أنطلق من أمر أساسي أنّ الأحزاب الموجودة احتاجت إلى وقتٍ طويل لتصل إلى ما هي عليه الآن. لذلك طريقنا طويلة وصعبة جدًا لنُغيِّر العقلية والذهنية وهذا يحتاج إلى جهد كبير. فإذًا، أنا برأيي الانتخابات مهمّة لكن ليست أولويّة لنا الآن. الأولوية في الوقت الحاضر هي تثقيف المجتمع حول أهمية الانتخابات والدور الذي يجب أن يقوم به النائب وهو التشريع. ثانيًا هي مساعدة المواطن على محاولة إيجاد وخلْق فُرص عمل. لكن لا نُريد أن نُساعد بغاية الاستقطاب، وإنّما نحن بطور العمل مع مؤسسات وأشخاص لإيجاد هذه الفرص وهذه مسألة صعبة لكن قابلة للتحقّق. ونحن بدأنا في هذا التّوجّه بخلْق فُرص عمل في المناطق. وإذا استطعنا تقديم هذه الخدمات للمواطنين فنستطيع أن نخلق جدّية في التّعاطي وجدّيّة في تفعيل الائتلاف. نحنُ هدفنا في الائتلاف ليس إنشاء حزب فقط، بل هدفنا هو بناء وطن واستعادة دولة تسهر على راحة الفرد وتؤمّن له فرصة تأمين عيشه بطريقة مُحترمة. نحن لا نعمل طمعًا في الانتخابات وإنّما للوصول إلى مجتمع قادر يقبل التّغيير، فالانتخابات هي نتيجة تراكمات جُهود وقفزات متواضعة.

• أريد أن أسأل عن موقع الائتلاف من القوى السياسية الأخرى؛ نظرته لهم ونظرتهم له كيف تراها؟

الذي حصل في العام ٢٠٠٥، وقبله قرنة شهوان والبريستول، وصولًا إلى قوى ١٤ آذار، كان هناك دور مهم للبنانيين الشيعة. لكن الاتفاق الرباعي قضى على كل تحرُّك شيعي وطني، وصار التفكير بناءً على الاتّفاق الثلاثي وعلى مبدأ مسايرة الأطراف الأخرى. وصار هناك تهميش للقوى الوطنية الشيعية في الوقت الذي كانت هي القوى الأكثر نشاطًا. الآن بعد مرور ١٩ سنة يبدو أنّهم انتبهوا إلى أنّ هناك مكوّن شيعي لم يهتموا به، من هُنا، يأتي تفكيرنا بأن نكون مكوّنًا وطنيًا لنا مكاننا على الطاولة.

• بالنسبة للأعضاء في الائتلاف، هُناك طبعًا خلفيّات سياسية متعدّدة، لكن هل هناك معايير معيّنة للانتساب؟

- نحنُ لسنا طلّاب ألقاب، كرئيس ونائب رئيس وغير ذلك، بل نؤمن بالتنظيم. أنا أؤمن بالإدارة عبر المثل: You Lead by Example. الذي حصل أنّنا نعرفُ بعضنا بعضًا ونعرف خلفيّات الجميع. هُناك أمر مشترك أنّنا مؤمنون بالذي نقوم به. ونحن منفتحون على الجميع. أنا ليس طموحي أن أكون رئيس ائتلاف وإنّما أطمح بإعطاء الدور للشباب.

هناك بعض اللوم على الشباب في ١٧ تشرين وهي أنّهم لا يؤمنون بتجارب الأجيال التي سبقتهم. يُفترض أن يستمعوا إلى خبرة الأجيال السابقة. هناك تراكمات وتجارب وتضحيات ومحطّات وصلنا إليها لا يمكن أن نديرَ لها ظهرنا. هذا نوع من العدمية. ونحن دفعنا ثمن الدولة العميقة المكوّنة من الأحزاب، لأنّ الطائف أنهى الحرب وألبسَ رؤساء الميليشيات ربطة عنقٍ وسلّمهم السلطة، وتمّ تطبيق الاتفاق الثلاثي دون تطبيق الطّائف. من هنا توجهوا إلى تحريفات بالدستور بما يتناسب مع مصالحهم، وحين وصلوا إلى مرحلة لا يستطيعون معها التعديل أو التغيير نادى البعض بتغيير الطّائف، وآخرون نادوا بمؤتمر تأسيسي وآخرون بالفدرالية. طيّب طبّقوا الطّائف وعلى ضوء التطبيق نرى ما يجب تعديله وما يجب المحافظة عليه. لأنّ الطائف هو الوحيد الجامع لكل الأطراف. لا أحد يستطيع الرفض. على أساس التطبيق نتناقش حول التعديل، لكن ليس حين يكون فريق يضع سلاحه على الطاولة، وإنّما بشكل ديمقراطي ودستوري.

• هل هناك سعي للاستقطاب من كل فئات المجتمع أم أنّ التوجّه هو للبقاء كحركة نخبوية؟

- كلا، نحن نتوجّه إلى كل النّاس. لم تنجح الحركات النخبوية. هناك عدّة أحزاب كانت نخبوية وفشلت. فنحنُ نقوى أكثر بقدر ما نستطيع أن نكون إلى جانب اللبنانيين ومعهم.

• ما هو موقع الشباب في رؤية الائتلاف؟

- الشباب هو الأساس. إجمالًا في كل اللقاءات التي تجري دائمًا هناك مجموعة من الشباب معنا. وفي كل النشاطات التي تجري أو اللقاءات أكون أكثر فرحًا حين أرى الشباب موجودون في هذه اللقاءات. وحتى في اللقاءات الكبيرة أنا أعرّف عن نفسي وأفسح المجال للشباب ليناقشوا ويتحدّثوا. لأنّ الشباب هم الفئة الحقيقية التي يجب الرهان عليها، لأنّهم يعيشون بين الناس ويعرفون المجتمع ويعرفون كيف يُخاطبونه بعيدًا عن التنظير. وهذه المسألة تلقى نوعًا من الاستقطاب عندَ الناس. فكرة وجود الشباب الواعي والمُدرك والمثقف. نحن تركيزنا على الشباب أكثر.

• ما هي صورة لُبنان في رؤية الائتلاف؟ وما هو موقعه عربيًّا ودوليًّا؟

- نحن نرى لبنان بلدٌ قابل لأن نعيش فيه بالتساوي في دولة يحكمها القانون. والأولوية هنا هي لاستقلالية القضاء التي تضمن الاستقرار على كافة المستويات، لأنّه يصبح هناك مرجعية. ولتحقيق هذا الأمر لدينا صِراع طويل.

لا بد أن نعترف بوجود طرف يحمل السلاح ويدعو للتفاوض معه. لا يمكن لهذا التفاوض أن يكون إلّا بعد تطبيق الدستور ووضع سياسة دفاعية موحّدة، وحين يكون قرار الحرب والسلم حصرًا بيد الدولة، حينذاك يمكننا أن نبني وطنًا وقضاءً ونُجري انتخابات على أساس قانون انتخابي سليم وليس مفصّلًا على مقاس الأطراف الموجودة. حينذاك يمكن أن ينظر المجتمع الدولي إلى لبنان كدولة محترمة. لكن مع الأسف كل الطبقة السياسية التي تعمل في هذا البلد هم هُواة، الجميع يفكّر على مستوى ضيّق وليس على مستوى الوطن. يجب على الجميع التعاطي تحت مظلّة القانون. ثانيًا وهو الأهم، الثقافة السياسية الموجودة في المجتمع اللبناني ضعيفة جدًا. المواطن لا يُدرك أن مهمة النائب هي التشريع وليس التعزية. والنوّاب الموجودون يعملون كل شيء إلّا التشريع. هناك مجموعة تتحكّم بالمجلس وتتلاعب بالقانون. مثلًا تقع حرب؛ وزارة الدفاع ورئاسة الحكومة لا يعلمون بذلك، المجلس النيابي لم يجتمع مرّة لمناقشة ما يجري. مع الأسف أنّ جزءًا كبيرًا من النواب لا يعرفون ما هو دورهم. هذا ما أعنيه بالثقافة السياسية؛ أن تعرف دورك كمشرّع في البرلمان. فنحن بحاجة إلى عمل جدّي في هذا المجال. أمّا موقع لبنان عربيًّا فهو أساسي جدًا، شئنا أم أبينا، ورغم كل الانفتاح الذي يجري في بعض الدول العربية، لكن لبنان له خصوصيته وميزته من خلال التفاعل والانفتاح على الغرب والعرب. المجتمع اللبناني متفاعل وقابل للتطوّر وقابل لاستقطاب الأفكار الجديدة التي قد لا تجدها في غيره من المجتمعات العربية. لُبنان بحاجة ضرورية إلى الانفتاح على العالم العربي بالدرجة الأولى، وعلى العالم الغربي أيضًا. لا نستطيع أن ننسى فضل الدول العربية على لبنان، بخاصّة مساعدة لَبنان بعد الحروب.

• ما العمل للخروج من الأزمة التي نعيشها؟

- يجب أن نتوحّد مع الجميع تحت مظلّة خطاب وطني واحد. بغير خطاب وطني موحّد لا نستطيع القيام بأي شيء، وهذه أهمية اللقاءات التي يجب أن نعمل عليها لخلْق هذا الخطاب. سنقاوم بالثقافة، سنقاوم بالفن، سنقاوم بالفكر، سنقاوم بإحقاق العدالة وأخيرًا سنقاوم بالحرية وحرية التعبير. وحرية التعبير لا يمكن أن نفرّط بها أبدًا. ■

لماذا التشديد على الدستور والطائف؟

جاد الأخوي

سؤال يُطرح والإجابة ستكون سهلة ومختصرة ببعض التفسيرات.

بعد حرب استمرّت حوالى خمسة عشر عامًا جرت خلالها أعمال قتل وخطف وتهجير وأدّت إلى خسارة أكثر من مئة ألف قتيل، وجرْح وإعاقة مئات الألوف، واختفاء حوالى السبعة عشر ألف مفقود تقريبًا. جاء اتفاق الطائف والذي سُمّي بوثيقة الوفاق الوطني، لإنهاء الحرب.

أهم ما جاء في الاتفاق هو اعتراف المسلمين بلبنان كيانًا مستقلًّا، واعتراف المسيحيين بعروبة لبنان. ومنذ ذلك الوقت هل انتهت الحرب، ولبِس رؤساء الميليشيات «الكرافات» ودخلوا المعترك السياسي، وزراء ونوابًا ورؤساء. لكنهم استمروا في الاعتقاد بأن إدارة الوطن والدولة، مثلها مثل إدارة الميليشيا، محاصصة، وإدخال أزلامهم في مؤسسات الدولة، إلى أن أتخموا الإدارة بفائض في الموظفين وبطالة مقنّعة أوصلتنا إلى ما نحن عليه اليوم. مالية مشتركة، شرطة مناطقية تابعة للميليشيا، وغيرها من الأمور، وينتهي الموضوع.

عملوا بهذا المنطق. لكنهم بالواقع منذ ١٩٨٩ لم يطبّقوا حرفًا واحدًا من اتفاق الطائف، بل شُبِّه لهم، بينما هم كانوا يطبّقون «الاتفاق الثلاثي»، وهو المسمّى الرسمي للمحاصصة، وهذا سبب من الأسباب الكثيرة التي أوصلتنا إلى الفساد المستشري والانهيار الكامل لمؤسسات الدولة. بالطبع لا يجب أن ننسى وجود السلاح غير الشرعي، الذي قام بحماية هؤلاء «السياسيين الجُدد». وهذا موضوع آخر يجب التعمّق به.

الطائف بالواقع لا يتناسب مع عقلية أُمراء الحرب، لذلك كان الاحتيال بتطبيقه دائمًا سيّد الموقف تحت ستار تعديل الدستور، لمرة واحدة فقط، وهذه المرة الواحدة أصبحت مرات متعدّدة إلى أن جعلوها أعرافًا.

عندما استنفدوا كل الوسائل و«المرات المتعدّدة» بدأ الصراخ بأن الطائف فاشل ويجب تعديله أو إلغاؤه، بما يتناسب مع الذين يديرون الوطن. وكل واحد منهم يستعمل التفسيرات التي تناسب مصلحته الشخصية قبل كل شيء، وهم للتذكير، رؤساء الميليشيات سابقًا.

إذنْ الطائف لم يطبّق فكيف نحكم عليه ما إذا كان فاشلًا أم لا.

أمورٌ كثيرة طُرحت: تعديل الدستور، إلغاء الطائف، مؤتمر تأسيسي، فدرالية، إلغاء الطائفية السياسية، اللامركزية، مجلس شيوخ إلخ إلخ... كما أن اتفاق الطائف لم يطبَّق إلّا بشكل استنسابي لخدمة مصلحة الاحتلال السوري وهيمنته في حينها. كل هذه الأمور جاءت اجتزاءات لوثيقة الوفاق الوطني، لا يمكن أن تطبّق إلا بشكل متكامل.

بالرغم من كل هذه الاقتراحات في ظلِّ الأزمة السياسية المسدودة الأفق، يبقى تطبيق الطائف بكامل بنوده هو الحلّ الأوحد، لاستكشاف الثغرات تمهيدًا لتطوير وإدخال التعديلات الدستورية المطلوبة عليه.

وثيقة الوفاق الوطني (الطائف) تغطّي كل المطالب التي يتصارع الفرقاء «رؤساء الميليشيات السابقين» على تطبيقها بالقطعة. فلا يمكن أن تقف الدولة دون وجود حكومة مركزية صلبة، تُمسك بالسياسة الدفاعية والخارجية والمالية. وبوجود فريق مسيطر على الدولة بكاملها يمكنه حينها السيطرة على كل مفاصل الدولة. لإلغاء الطائفية السياسية حدّد الطائف فترة زمنية تشكّل خلالها هيئة تقوم بدراسة هذا الموضوع لفترة زمنية محدّدة يُنشأ بعدها مجلسٌ للشيوخ منتخَب لتمثيل الطوائف، بينما يُنتخب مجلس النواب من خارج القيد الطائفي وغيرها من الحلول لكل المطالب.

النتيجة، إلغاء الطائف سيُحدث شرخًا واسعًا في لبنان ويؤمّن حكّام لبنان مصالحهم لفترة قصيرة. بينما الحلّ هو بتطبيق الاتفاق بحذافيره والعمل على تعديل وإضافة بعض الفقرات التي تُظهر عدم جدواها من خلال الممارسة. وكل شيء غير ذلك هو شرخٌ كبيرٌ في الوطن لن نتمكن من إصلاحه بمئات السنين.

ثقافةُ «السَّحسوح»

حينَ يَغدو «السَّحسوح» ثقافةً مُمانِعةً

تُشكِّلُ القُوَّةُ، بكافَّةِ صُوَرِها، إحدى أهمِّ المُرتكزاتِ التي تَقومُ السِّياسةُ عليها. وقدِ اعتادَ المَعنيُّونَ بالسِّياسةِ ولُغاتِها التَّمييزَ بينَ «قُوَّة المنطق» و«منطق القُوَّة» الذي يُعَدُّ مُرادِفًا للعُنف، إذْ إنَّه إفراطٌ في جعلِ القُوَّةِ مِحورًا أساسيًّا، ووحيدًا أحيانًا، للخطاب والأداء السِّياسيَّيْن. وبالتَّالي، قد يتحوَّلُ «منطقُ القوَّة» نفسُه إلى أداةٍ من أدواتِ العمل السِّياسي التي تدلُّ بدورِها على طبيعةِ المشروع السِّياسيِّ من جهة، وعلى رؤيةِ الحِزبِ السِّياسيِّ لنفسِه وللآخر من جهةٍ أخرى. وبطبيعةِ الحالِ، يحتاجُ منطقُ القُوَّةِ إلى وجودِ «قائدٍ/ زعيمٍ» قادرٍ على مُمارسةِ هذا النَّوع من المنطق. ورغمَ أنَّ المؤهِّلاتِ الموجودة لدى أيِّ قائدٍ تلعبُ دورًا مُهمًّا في صناعةِ شخصيَّةِ القائد في ذهنِ المؤيِّدين والمُعارضين له على حدٍّ سواءْ، إلَّا أنَّ هذه المؤهِّلاتِ لا تُغني عن الحاجةِ الضَّروريَّةِ إلى الدِّعايةِ المُستدامة، إنْ جازَ التَّعبير، والتي تختلفُ بشكلٍ كُلِّيٍّ عن البروتوكولاتِ المُتعارفةِ بينَ القادة، إذْ إنَّ الدِّعايةَ تلعبُ الدَّورَ الأهمَّ في صناعة «الشَّخصيَّة المُتخيَّلة للقائد».

تلعبُ شخصيَّةُ القائد دورًا لعلَّه الأكبرُ في السُّلوكِ السِّياسيِّ للجماعةِ، أو الشَّعب، في المنطقةِ العربيَّةِ، إذْ إنَّ السِّياسةَ عندَ العربِ لم تزلْ ترْتَبطُ ارتباطًا عُضويًّا بشخصِ القائد في ظِلِّ التَّماهي الحاصل بينَ مَفهومَيْ الدَّولةِ والسُّلطةِ من جهة، وفي ظِلِّ غيابِ مفهوم دولة المُؤسَّساتِ بشكلٍ شِبه كُلِّيٍّ. من هُنا، إنَّ شخصيَّةَ القائد نفسَها قد تتحوَّلُ إلى أداةٍ من أدواتِ طرحِ المَشروع السِّياسيِّ والحِفاظِ عليه من جهةٍ، وإلى وسيلةِ إقناعٍ للـ«جماهير» من جهةٍ أُخرى.

يُمكنُ لمَن يُراقب الحالة السِّياسيَّة القائمة في لُبنان أن يَخلُصَ إلى أنَّها لم تخرُجْ، حتَّى اليوم، عن هذا المَعنى. وإذا كانَ لكُلِّ حِزبٍ نصيبُه من منطقِ القوَّةِ وخطابِ الاستعلاءِ على الآخر، فإنَّ الحصَّةَ الأكبر، خطابًا كان أو مُمارسةً، هي من نصيبِ «حزب الله» الذي باتَ منطقُ القُوَّةِ عندَه سِمةً دالَّةً عليه أكثرَ من غيرِه. ويَعودُ هذا الواقعُ إلى عواملَ موضوعيَّةٍ وأخرى ذاتيَّةٍ أهمُّها؛ أنَّه حزبٌ يملكُ ترسانةً ضخمةً من الأسلحةِ التي تجعلُه، شاءَ أم أبى، ينظرُ إلى العالَمِ من فُوهَةِ مدفعِه. والعاملُ الثَّاني أنَّه حزبٌ عقائديٌّ يُماهي، في خطابِه على الأقلِّ، بينَ الدِّينِ والسِّياسةِ وهذه المُماهاةُ تحملُ، بطَبْعِها، بُعدًا إقصائيًّا للآخرِ المُختلف. وتاليًا، إنَّ اجتماعَ هذَيْن العامليْن عندَ «حزب الله»، وعندَ قاعدتِه الشَّعبيَّةِ على وجْه الدِّقَّةِ، جعلَ من المنطقيِّ أن تؤولَ شؤونُ «حزب الله» إلى ما هي عليه الآن.

محوريَّةُ الشَّخصيَّةُ المُقدَّسَةُ:

التَّقديسُ، اصطلاحًا، هو التَّنزيهُ؛ تنزيهَ المُقدَّسِ عن كُلِّ عيبٍ وخطأ. ويُمكنُ تحديدُ العامِ ٢٠٠٠ كبدايةٍ لانتشار فكرةِ تقديسِ القائد بينَ جمهور «حزب الله»، فشخصيَّةُ الأمينِ العامِّ السَّابقِ السَّيِّد عبَّاس الموسويِّ لم يُنظرْ إليها، قبلَ اغتيالِه، كشخصيَّةٍ مُقدَّسَةٍ رغمَ أنَّه من أبرزِ مؤسِّسي الحِزبِ وثاني أمينٍ عامٍّ له. بينما لا كبيرَ حاجةٍ إلى البحثِ والتَّحليلِ لتأكيدِ أنَّ شخصيَّةَ الأمينِ العامِ الحاليِّ، السَّيِّد حسن نصرالله، يُنظرُ إليها مِنْ قِبَلِ أنصاره على أنَّها شخصيَّةٌ مُقدَّسَةٌ. وحولَ هذا يقولُ الدَّكتور في عِلم النَّفس داود فرج أنَّ «الشَّخصيَّةَ المُقدَّسَةَ هي البوصلة والطَّريق بالنِّسبةِ للمُقدِّسين. فحياتُهم العامَّة مُرتبطَة بهذه الشَّخصيَّة التي تجمعُهم وتضمنُ تماسُكَهم وتُحدِّدُ سلوكُهم وحياتُهم». ويَضربُ مثلًا مُجتمعَ النَّمل حيثُ لا يتمُّ التَّواصُل بينَ النَّمل بشكلٍ مُباشرٍ وإنَّما هو «تواصلٌ كيميائيٌّ عبرَ المَلِكة التي تُشكِّلُ نُقطةَ ارتكازٍ للكُلِّ».

مُقدِّماتُ التَّقديسِ وتجلِّياتُه:

لعبتْ عِدَّةُ عواملَ دورًا مُهمًّا في صناعةِ هذه القُدسيَّةِ. فإضافةً إلى القُدراتِ الشَّخصيَّةِ التي يمتلكُها السَّيِّدُ نصرالله

الاعتذار من علي حسن خليل، المصدر: وسائل التواصل الاجتماعي

والجِهازِ الإعلامي الهائل المُرافق له وقابليَّةِ التَّقديسِ لدى الجمهور الذي يُماهي بينَ الدِّينيِّ والسِّياسيِّ؛ إضافةً إلى ذلكَ كُلِّه كانَ هُناكَ عِدَّةُ عواملَ خارجيَّةٍ لعبتْ دورَها أيضًا مثل: الانسحابِ «الإسرائيليِّ» من جنوب لُبنان، وفاةِ الرَّئيس حافظ الأسَد، الانسحاب السُّوري من لُبنان، حرب تمُّوز وغير ذلكَ من الأحداث.

وتلعبُ هذه القُدسيَّةُ دورًا في تقديمِ شخصيَّةِ القائدِ والحِفاظِ عليها، إذْ يقولُ الدَّكتور فرج إنَّ «الحِفاظَ على وضعيَّةِ القائد يتطلَّبُ إظهارَه كشخصيَّة عظيمة تفعلُ ما لا يفعلُه سائرُ النَّاس. والغُموضُ الذي يُحيطُ بالشَّخصيَّةِ يلعبُ دورًا مُهمًّا في ذلك. فشخصيَّة القائد؛ هذه الشَّخصيَّة العُظاميَّة، تُشكِّلُ مرتكزًا أساسيًّا للعلاقة اللاواعية بين الجماهير، وهي لا يُمكن أن تؤدِّي دورَها بدون هذه القَداسَة».

وأوَّلُ ما تتجلَّى فيه هذه القُدسيَّةُ هو اعتبارُ النَّقدِ مُرادفًا للشَّتيمةِ، إذا كانَت هذه الشَّخصيَّةُ المُقدَّسَةُ هي مَحَلَّ النَّقد. وغالبًا ما تكونُ نتيجةُ هذا النَّقدِ أن يتمَّ «تأديبُ» المُنتقِدِ تأديبًا شديدَ اللَّهجةِ يبلغُ حدَّ الاعتداء بالضَّربِ العنيف والمُبرِّح بهدفِ إجبارِه على العودة عن رأيه بعدَ تقديمِ اعتذارٍ بالصَّوتِ والصُّورة. حينَ تنجَحُ هذه الوسيلةُ ويَعتذرُ المُنتقِدُ فإنَّ ذلكَ يُسمَّى في اللُّغةِ المَحكيَّةِ عندَ مَنْ خَبَرَها أو سَمِعَ بخَبَرِها منَ اللُّبنانيِّين بالـ«سحسوح». وبِغْيَةَ التَّأكيدِ على فاعليَّةِ «السَّحسوح» في الإقناع، انتشرت بينَ النَّاسِ، مؤيِّدين ومُعارضينَ، مُقارنةٌ تَقومُ على تحقيبِ الموقفِ المُعلَنِ وفقَ ثُنائيَّةٍ يكونُ «السَّحسوح» حدثًا مِفصليًّا فيها؛ «قبل السَّحسوح.. بعد السَّحسوح». ورغمَ ما يحملُه مُصطلحُ «السَّحْسُوح»، ومُشتقَّاتُه، من دلالاتٍ ويُعيدُه إلى الأذهانِ مِنْ صُوَرٍ وحوادثَ أدنى ما تُوصَفُ به أنَّه مِثالٌ للتَّجرُّدِ منَ الأخلاقِ والقِيم، إنَّ استعمالَ هذا المُصطلحِ في مَتنِ هذا النَّصِّ ليسَ إلَّا مِنْ بابِ إرادةِ المَعنى والدَّلالاتِ التي تلزمُ عنه، فقط لا غير.

«السَّحْسُوحُ» تاريخًا ومآلاتٍ:

إنَّ عِلاقةَ «حزب الله» بالعُنفِ تَعودُ إلى بداياتِ نشوئه في ثمانينات القرن الماضي. فـ«حزب الله» وَليدُ الحربِ الأهليَّةِ بكُلِّ تعقيداتِها، ومنَ البَدَهيِّ أنْ كانَ له نصيبُه منها وكانَ لها نصيبُها منه، سَواءٌ أكانتْ مُشاركتُه كطرفٍ في الأعمالِ القِتاليَّةِ أم كانتْ أعمالُه العُنفيَّةُ تستهدفُ شخصيَّاتٍ عامَّةٍ من مُثقَّفين ومُفكِّرين من أبناءِ الطَّائفةِ الشِّيعيَّة، أو حتَّى أفرادًا من عُمومِ أبنائها. ويذكرُ بعضُ كِبارِ السِّنِّ الذين شهدوا بدايةَ صعودِ الحزبِ في البقاع أنَّ النِّساءَ «المُتبرِّجات» كُنَّ تتعرَّضْنَ لمُضايقاتٍ من قِبَلِ عناصر «حزب الله». كما إنَّه ليسَ غريبًا في جوِّ الحربِ أنْ يَعمدَ «حزب الله»، كغيرِه منَ الأحزابِ، إلى الاعتداء على المُعارضينَ له منَ النَّاس، وبخاصَّةٍ في المناطق الشِّيعيَّةِ التي تُشكِّلُ مجالَه الحيويَّ في بلدٍ يُعاني من انقساماتٍ طائفيَّةٍ تُحاولُ فيه الأحزابُ الطَّائفيَّةُ إحكامَ سيطرتِها على الطَّائفةِ التي تنتمي إليها أكثرَ من محاولاتِها السَّيطرةَ على «مناطق» الطَّوائف الأخرى. ورغمَ أنَّ الحزبَ يَحرصُ على احتكار تمثيلِ الطَّائفةِ الشِّيعيَّةِ في السُّلطةِ، حتَّى على حساب حركة أمل؛ ورغمَ أنَّ الحِزبَيْنِ الشِّيعيَّيْنِ يتقاسمان حصَّةَ الشِّيعةِ منَ التَّمثيلِ الطَّائفيِّ، إلَّا أنَّهما لم يكونا يومًا مُمثِّلَيْنِ وحيدَيْن للطَّائفةِ التي تضمُّ، بحُكمِ البداهةِ، مُعارضينَ ومُؤيِّدين.

للـ«سحسوح» تاريخٌ طويلٌ نسبيًا عندَ أبناءِ الطَّائفةِ إلى حدٍّ باتَ فيه جُزءًا من الثَّقافةِ الجَمعيَّةِ إنْ جازَ التَّعبير. فإضافةً إلى التَّرهيبِ الذي يُرتكبُ بحقِّ المُعارضينَ السِّياسيِّينَ للحزبِ، وخاصَّةً خِلال الانتخاباتِ، يقومُ الحِزبُ بمُمارسةِ العُنفِ على المواطنين العاديِّين بمَنْ فيهم المؤيِّدون له والذين يخرجونَ في لحظةِ غضبٍ، أو اقتناعٍ، عن الطَّاعةِ والولاء. ومنَ الجديرِ بالذِّكرِ عندَ التَّعاطي مع «السَّحسوح»، كمُصطلح، أن نُحدِّدَ تعريفَه بأنَّه نجاحُ القمعِ في تغيير رأي المَقموع. إذ إنَّ عددًا، قليلًا أو كثيرًا، منَ المُعتدى عليهم لم يُبدِّلوا مواقفَهم نتيجةَ هذا الاعتداء، وتاليًا فإنَّه لا يَجوز أنْ يُطلقَ على هؤلاء فعلُ «السَّحْسَحَةِ» إنْ جازَ الاشتقاقُ.

كانتْ فاتحةُ كِتابِ «السَّحسوح»، أو تحوُّلُه إلى ظاهرةٍ واسعةِ الانتشار، في أحداثِ حيِّ السُّلُّم في الضَّاحيةِ الجنوبيَّةِ لبيروت عام ٢٠١٧ حينَ تمَّت إزالةُ السُّوق والدَّكاكين الشَّعبيَّة المُخالفة في المنطقة المعروفة بـ«موقف حيِّ السُّلُّم». اعتصمَ أصحابُ المحلَّاتِ المُزالَةِ وحمَّلوا «حزب الله» مسؤوليَّةَ ذلكَ، وقد تمَّ التَّعرُّضُ بالنَّقْدِ والاتِّهامِ للأمينِ العام لـ«حزب الله» شخصيًّا الذي تعرَّضَ أيضًا للسَّبِّ والشَّتْمِ في سابقةٍ لعلَّها الأولى التي تخرُجُ على وسائل الإعلام، إذ إنَّ ذلكَ كانَ موجودًا قبلَ تلكَ الحادثة. وعندَ مُتابعةِ تصريحاتِ أصحابِ الدَّكاكين يُمكنُ مُلاحظةُ أنَّ مُعظمَهم لا يتحدَّثونَ من بابِ العداءِ لـ«حزب الله» وإنَّما من بابِ الشكوى إلى المَعنيِّين المُفترض بهم رعايةُ مصالحِ الطَّائفة، حتَّى إنَّ البعضَ منَ المُعتصمينَ لم يقبلْ بالشَّتيمةِ، ومُعظمُ، إن لم يَكُنْ كُلُّ الذينَ تحدَّثوا إلى الإعلامِ مُخاطبينَ الأمينَ العام لم يُخاطبوه إلَّا بـ«سماحة السَّيِّد». بعدَ هذا بأيَّامٍ قليلةٍ خرجَ الأشخاصُ أنفسُهم مُجدَّدًا على الإعلامِ ليُقدِّموا اعتذارَهم منَ السَّيِّد نصر الله بملامحَ وأصواتٍ مُنكسِرَةٍ وذليلة.

توالَتْ بعدَ ذلكَ مِثلُ هذه الحوادثِ، وبخاصَّةٍ خلال أحداث ١٧ تشرين ٢٠١٩ وبعدَها. وممَّنْ سُجِّلَتْ أسماؤهم على لائحةِ المُعتذرينَ؛ علي شمص (حيِّ السُّلُّم، ٢٠١٧)، لؤي شبلي (صيدا، ٢٠٢٠)؛ وليد مشيك (جسر الرِّينغ، ٢٠٢٠).

كما وقعتْ في العام ٢٠٢٣ أحداثٌ مُشابهة لأحداث حيِّ السُّلُّم في قرية عين قانا الجنوبيَّة التي انتفضتْ لأسبابٍ معيشيَّةٍ و«تبرَّأتْ» من النَّائبَيْن محمَّد رعد وهاني قبيسي.

في المُقابل لم ينجحِ العُنفُ، الجسدي أو المعنوي، في كثيرٍ منَ الحالاتِ التي حاولَ فيها «حزب الله» استعمال العُنف لثَنيِ المُعترضين أو إسْكاتِهم. ولا يَقتصرُ القمعُ الذي يُمارَسُ على المُعارضين السِّياسيِّين والمُواطنينَ ممَّن يَجهرون بمُعارضتِهم أو بنَقْدِهم للـ«قيادة». إذْ يطالُ الاعتداءُ أيضًا رجال الدِّين الخارجين عن الخِطابِ الدِّينيِّ الذي يفرضُه «حزب الله» كما جرى في آب منَ العام ٢٠٢٣ حينَ أصدرتْ «هيئةُ التَّبليغ الدِّيني» في المجلس الشِّيعيِّ بيانًا طالبتْ فيه بتجريدِ ١٥ رجلَ دينٍ من الزِّيِّ الدِّيني وعدمِ الاعترافِ بهم في المحاكم الجعفريَّة. وأبرزُ رجال الدِّين هؤلاءِ وأشهرُهم كان ياسر عودة الذي يتعرَّضُ هو وأبناؤه لحملاتِ تشويهٍ مُنظّمة ومُضايقاتٍ مُنذُ العام ٢٠١٧. إضافةً إلى الاعتداءات التي تطالُ الإعلاميين كما جرى في العام ٢٠٠٦ حين تمَّ إيقافُ برنامج «بس مات وطن» على خلفيَّةِ تقليدِ الأمين العام لـ«حزب الله»؛ وما جرى مع المُصوِّر الصحفي حسن شعبان في بلدة بيت ياحون الجنوبية عام ٢٠٢٢ على خلفيَّة تغطيتِه لاحتجاجات البلدة على انقطاع المياه، حيث تعرَّضَ له أنصار الحزب بالضَّربِ.

لائحةٌ طويلةٌ منَ الأسماءِ والمناطقِ التي لاقَتِ المصيرَ نفسَه، ولا يبدو أنَّ اللائحةَ قد أُقفِلتْ بعدُ. والسُّؤالُ الضَّروريُّ هُنا هو عن دلالاتِ «السَّحْسُوح» لا بوَصفِه عملًا عُنفيًّا وحسب، بل بوصفِه عملًا سياسيًّا من جهة وثقافةً عندَ مُجتمعِ «حزب الله» من جهةٍ أخرى.

«السَّحسوح» ثقافةً ودلالاتٍ:

إنَّ تحوُّلَ ظاهرةٍ ما إلى ثقافةٍ يَعني، في ما يَعنيه، وجودُ أرضيَّةٍ نفسيَّةٍ تسمحُ بذلك. من هُنا، إنَّ انتشار مُصطلح «السَّحسوح» بسُرعةٍ في المُجتمعِ ودخولَه إلى البناء الثَّقافي للنَّاس يَرجعُ إلى أنَّ البناءَ النَّفسيَّ للمُجتمعِ مؤهلٌ لذلك. وتعليقًا على هذا يَقولُ الدُّكتور فرج إنَّ «الولد في الحَيِّ حينَ يحْلقُ شعرَ رأسِه فإنَّ أصدقاءه يُسَحْسِحون له. وأيضًا يُمكن أن يحدثَ ذلكَ على سبيلِ "المَوْنة" أو المِزاح. فالمَفهوم الاجتماعي للسَّحسوح حاضِرٌ ولَه بُعدٌ رَمزيٌّ أيضًا؛ فحينَ يَسكُتُ الشَّخص على السَّحسوح فهذا يعني الخضوع للسُّلطة الاجتماعيَّة ولسُلطة المجموعة التي تُسَحْسِحْ لَه. فسكوتُه هو نوعٌ من تقديم الطَّاعةِ للجماعة». والأخطر في المسألة هو الدُّونيَّة التي يُنظرُ بها إلى المُسَحْسَحْ لَه، إذْ يُضيفُ الدُّكتور فرج: إنَّ الذي يتلقَّى «السَّحسوح» يُمثِّلُ «الشَّخصَ العاقّ والأدنى الذي لا يرفعُ رأسَه أمام الضَّاربِ، لأنَّ السَّحسوح يكونُ حين يُحني المَضْروبُ رأسَه إلى أسفل. "توطيةُ الرأس" هي تأديةُ للطَّاعة. والذي يُوسَمْ بالسَّحسوح هو شخصٌ أدنى بنظَر النَّاس. حتَّى على سبيل المِزاح حين يُقالُ: «سَحْسَحتْ لفُلان، فإنَّ فيها نوعًا من الازدراءِ له». من هُنا إنَّ تغيير الموقف بعدَ «السَّحسوح» يعني الرُّضوخ والدُّونيَّة عندَ النَّاس لأنَّ «الرَّجُل بالمفهوم المُتعارَف عليه بينَ النَّاس، أي "الزَّلمة" أو "الرِّجَّال"، لا يُغيِّر موقفُه بسَبب الضَّغط. فالسَّحْسَحَة فيها نوعٌ من الإذلال المعنوي للشَّخص أمام المُجتمع الذي يُقاربُ المسألة بهذه الطريقة. كما أنَّ السُّحسوح هو رسالة ونموذجٌ حَيٌّ لِمَنْ يُفكِّر بإشهار اعتراضِه في المجتمع؛ "للّي بَدُّو يِحكي يكون عارف شو ناطُرُو". فالمسألة فيها جانبٌ رَدعيٌّ لتربية الآخرين أيضًا». ومن هُنا فإنَّ الدَّلالة الرَّمزيَّةَ للـ «سحسوح»، بوصفِه وسيلةً قمعيَّة، تكونُ أكثرُ إيلامًا لأنَّها تطالُ الجانب المعنوي من شخصيَّةِ المُسَحْسَحْ لَه.

يرتبطُ مفهومُ «السَّحسوح» بفكرة التأديب، أو «القصاص»، التي ينشأ الفردُ عليها في المدرسةِ أو حتَّى في المنزل. ففي المَدرسةِ هُناكَ قصاصٌ وتأديبٌ للتَّلميذ المُشاغِب، وأحدُ أنواعِ القصاص هي الضَّربُ. من هُنا، يحملُ «السَّحسوحُ»، من حيثُ هو ضَربٌ، بُعدًا تأديبيًّا يُلخِّصُ الدُّكتور فرج مسارَه بأنَّ المُنتقِد، فضلًا عن الشَّاتِمِ، يُنظرُ إليه على أنَّه «شخصٌ يتطاولُ على مَنْ هُم أعلى منه فهو إذًا غيرُ مؤدَّبٍ ومرفوضٌ ويَخرجُ عن السِّرب. بالتَّالي لا بُدَّ من تأديبِه. فالسَّحسُوح إذًا هو نوعٌ من التَّأديبِ الاجتماعي أيضًا». أمَّا الأسبابُ التي تستوجِبُ «السَّحسوح» فكثيرةٌ نسبيًّا لكنَّ أهمَّها على الإطْلاقِ هو التَّعرُّضُ إلى شخصِ الأمين العامِّ بشكلٍ مُباشرٍ، سواءٌ بالنَّقدِ وتحْميله المسؤوليَّةَ بشكلٍ مباشرٍ أو بالتَّجريح. وهذا يرجِعُ، بحسب الدُّكتور فرج، إلى كونِ «الزَّعيم تابو والمسُّ به هو مسٌّ بالمُقدّسات. فهذه الشَّخصيَّةُ، المُقدَّسَةُ بكُلِّ المقاييس، تُعطي للفرد قيمتُه المعنويَّة والمَسُّ بها هو مسٌّ بالفَرْد شخصيًّا. من هُنا يُمكن للسَّحسوح أن يأتي بمُبادرةٍ فرديَّةٍ. على أنَّ هذا لم يكن ليتكرَّر لولا المُباركة من الكِبار. فإذًا هو قد يكون مُبادرةً تتبعُها مُباركةٌ. هذا على مُستوى الأفراد، أمَّا على مُستوى الحزب نفسِه فهو يعتمدُ على العدديَّة في إظهار قُوَّتِه على المستوى الاقتصادي والسياسي والعسكري وغيرها». ويُشبِّهُ الدُّكتور فرج هذا التَّوجُّه بمُجتَمعِ الضِّباع «الذين يعتمدون على الكَثرة والعدَد لإظهار القُوَّة فهُمْ لا يُهاجمون الفريسةَ إلَّا في جماعة، على عكس الأُسُود مثلًا. والحالةُ العدديَّةُ تصنَعُ نوعًا من التَّهويل حيثُ يقدِّمون أنفسَهم ككيانٍ ضخمٍ ومتجانسٍ. هذه طريقتُهم في إظهار القُوَّة حتَّى في المهرجانات وفي المُساعدات حيثُ يُبالغون في الإنفاق».

أهالي عين قانا يحتجون قبل دفعهم إلى الاعتذار عن ذلك، المصدر: موقع الكتائب الإلكتروني.

لحظة اعتذار بعد شتم الامين العام لحزب الله، المصدر: قناة الجديد

ممَّا تجدرُ دراستُه بعنايةٍ عندَ مُعالجةِ هذه المسألة هو تفاعُلِ بيئة «حزب الله» مع «السَّحسوح». بطبيعةِ الحال يُوجدُ بينهم مَن لا يرضى بهذا الواقع، بيدَ أنَّ نسبةً كبيرة منهم يتفاعلون مع «السَّحسوح» بالمُباركةِ والتَّهليل، أو بالرِّضى على الأقلِّ. في جولةٍ سريعةٍ على مواقعِ التَّواصُلِ الاجتماعيِّ يظهرُ أنَّ «السَّحسوح» يَلقى ترحيبًا واسعًا ليسَ لدى جمهور الحزب وحسب، بل حتَّى لدى بعضِ مَن ينتمون إلى شريحة «النُّخبةِ» كالإعلاميين مثلًا. وفي ما يلي عيِّنَةٌ عن هذا التَّفاعُلِ نُوردُها حرفيًّا دونَ ذكرِ الأشخاص المَعنيِّين بالحديث:

«عملولك كم سحسوح جاييك هالمرّة خازوء». «حدا يمدّ إيدو ويعبّرو..... بمصافحة أو سحسوح». «... إقرأوا التاريخ جيداً واعتبروا. هالمرّة مش سَحسوح، هالمرة سنؤدّبكم إلى يوم الدِّين». «نسيت هيدا يا كراكوز التويتر سحسوح مرتب صحتين». «تسلم الأيادي وبيرْبَح معنا سحسوح الموسم». «أكل سحسوح واعتذر متل التوتو». «جاييك الدور تاكل سحسوح». إضافةً إلى عدد كبيرٍ نسبيًّا من مقاطع الفيديو التي انتشرت تحت عُنوان «قبل السحسوح... بعد السّحسوح».

ويُمكن مُلاحظة أنَّ التَّبريكِ والرِّضى بارتكاب «السَّحسوح» يسبقهُما اتِّهامٌ، مُباشرٌ أو غيرُ مُباشرٍ، بالعَمالة أو الخيانة كتبريرٍ لاستحقاقِ هذا العقاب أو التأديب. وهذه نتيجةٌ منطقيَّةٌ لمُعادلةٍ خطيرةٍ تسودُ السَّوادَ الأعظمَ من بيئة الحزب مفادُها: «إمَّا أن تكونَ معنا أو أنتَ خائنٌ/عميل»، وهذه المُعادلةُ بدورِها نتيجةٌ منطقيَّةٌ أيضًا لحالةِ التَّماهي القائمة بين الدِّيني والسِّياسي عندَ هذه البيئة، إذْ إنَّ القضايا السِّياسيَّةَ التي تُؤسَّسُ على أُسُسٍ دينيَّةٍ، أو آيديولوجيَّة بشكلٍ عامٍّ، ستؤدِّي إلى مثل هكذا مُعادلات إقصائيَّةٍ بُحكمِ طبيعتِها ودونَ اعتبارٍ لإرادةِ الحزبِ أو عدم إرادته. فمُعظمُ أحزاب الإسلام السِّياسيِّ، بحسب آراء المُفكِّر الفِلسطيني عدنان إبراهيم، كما يعبّر عنها في محاضراته، لديها «شعورٌ مُطلق بالحقَّانيَّة» وتعيشُ عُقدة «أُستاذيَّة العالَم». بالمعنى نفسِه ترى بيئةُ الحزبِ نفسَها ذاتَ حقٍّ في مُحاكمة الآخرين وتأديبِهم ليسَ من موقِع القَمْع بل من موقِع أنَّهم وحدَهم القيِّمينَ على «القضيَّة» المُحقَّةِ المَبنيَّةِ على الغيبيَّاتِ في حين يُفترضُ بها أن تكون قضيَّةً سياسيَّةً تقومُ على مُعطياتٍ واقعيَّةٍ محسوسة. فإلغاءُ الآخر، بالتَّالي، هو نتيجةٌ لـ«نزعة الحقَّانيَّة» هذه، إذ إنَّها تُؤسِّسُ ليسَ ليَلعبَ حاملُها دَورَ المُكلَّفِ من الله وحسْب، بل دَورَ الله نفسِه في الحُكمِ على ظواهرِ النَّاسِ وبواطنِهم على حدٍّ سَواء.

في المُقابل، يُناقشُ الدَّكتور عدنان إبراهيم مسألةَ أحزاب الإسلام السِّياسيِّ، من حيثُ هي، ويُشيرُ إلى أن التركيز على تربيةِ الحزبِ الإسلاميِّ لجماعتِه تَقومُ على نَزْعِ التَّفكيرِ النَّقديِّ من أذهانِهم، ويزدادُ خطرُ التَّفكير النَّقديِّ على الأحزاب التي تُمارِسُ نوعًا منَ الغموضِ والسِّريَّة. وتاليًا، يكونُ استخدامُ العُنفِ والقمعِ المُمنهجَيْن يَعودُ على هذه الأحزابِ بمزيدٍ منَ السَّيطرةِ على النَّاس، إذْ إنَّ التَّفكيرَ النَّقديَّ حينَ يتحوَّلُ إلى مُمارسَةٍ جماعيَّة، إنْ جازَ التَّعبير، يَعني، بالضَّرورةِ، خروجَ الجماعةِ عنِ الطَّاعة.

شُيوعُ ثقافةِ «السَّحسوح»:

إنَّ استخدام دلالات مُصطلح «السَّحسوح» لم تَعُدْ تقتصِر على بيئة «حزب الله» إذْ إنَّ بعض المعارِضين يسْتخدِمون هذا العُنوان إمَّا من باب السُّخرية وإمَّا من باب الرَّدِّ بالمِثل. وحول هذا يَقول الدُّكتور فرج إنَّ «السَّحسوح صار مَضرِب متَل لأنَّه شائع وفاقِع ومصدَر سُخرية وتهكُّم لدى كثيرين من المُعترضين على الفكرة، لأنَّ التَّهكُّم على الفكرة يعني أنَّها مرفوضة لدى المُتهَكِّم».

بطبيعةِ الحالِ، ليسَ المُرادُ منَ الحديثِ أعلاه تشريعَ الشَّتمِ والسُّبابِ ولا تَبريرُ «السَّحسوح» مُمارسةً وتَنظيرًا. بعبارةٍ أُخرى؛ إنَّ الشَّتْمَ مَرفوضٌ بالقَدْرِ نفسِه الذي يُرفضُ فيه أنْ يَكونَ «السَّحسوحُ» رَدًّا عُرفيًّا، إنْ جازَ التَّعبير، على الشَّتْمِ فضلًا عن أن يكونَ رَدًّا على النَّقد. لكن في ما يبدو أنَّ «السَّحسوح» حينَ يتحوَّلُ إلى ثقافةٍ شائعةٍ فإنَّ وسائلَ الخَلاصِ منه تتعدَّى حُدودَ الوسائلِ القانونيَّةِ إلى شبكةٍ واسعةٍ منَ الوسائلِ الثقافيَّةِ، النَّفسيَّةِ والعِلميَّةِ تُساهِمُ في مُعالجةِ الإشكاليَّةِ القديمةِ الجديدةِ في لُبنان؛ إشكاليَّةِ الأنا والآخر. ■

هكذا دفَع طلاب الجنوب أحد أثمان «حرب المساندة»...

أحمد خواجة

كما هو الحال في مختلف القطاعات، يشهد القطاع التربوي في لبنان معاناة كبيرة، كانعكاس للأزمة السياسية والاقتصادية منذ سنوات، وقد تفاقمت هذه المعاناة وخاصة في الجنوب بعد اندلاع الاشتباك في جنوب لبنان بين «حزب الله» وإسرائيل منذ الثامن من تشرين الأول من العام ٢٠٢٣.

نزح الشاب علي (١٦ سنة) مع عائلته من بلدة العديسة بعدما استهدفت إحدى الغارات مقرًا حزبيًا قريبًا من منزل ذويه في الأسابيع الأولى للحرب، ما اضطرهم إلى اللجوء إلى مدينة النبطية. علي كان يدرس تكنولوجيا المعلومات في معهد بنت جبيل، وقد توقفت الدراسة فيه مع اشتداد حدة الغارات في المنطقة.

ضيق الحال المادية وساعات المَلل والانتظار الطويلة دون القيام بأي شيء، دفعت علي للبحث عن عمل، فوجد ضالّته في إحدى التعاونيات بدوام كامل، الأمر الذي ساعده على تدبّر مصاريفه الأساسية وتقديم الدعم لأسرته المؤلفة من ستة أفراد.

بعد عدة أسابيع، استكمل المعهد دروسه عن بعد، لكن دوام علي الصباحي حال دون حضوره الحصص، بالإضافة إلى بطء الإنترنت وعدم توفّر الكهرباء، والصعوبات المالية التي واجهتها العائلة في ظلّ شحّ المساعدات. كلها عوامل دفعته إلى التضحية بالعام الدراسي والاستمرار في العمل لمساعدة عائلته.

يقول علي إنه يحب اختصاصه، وإنه كان يطمح إلى فتح مشروع صغير بعد تخرجه من المعهد، إلا أن ظروف الحرب حالت دون ذلك.

يخاف علي ممّا يخبئه المستقبل له ولعائلته، خاصةً وأن أمد الحرب قد طال ولا تلوح أي حلول في الأفق، هو لا يشعر بأي تفاؤل عند الحديث عن التقدم في المفاوضات لإيقاف الحرب، بعدما خاب أمله في المرات السابقة. يتمنى علي أن يعود إلى بلدته في أقرب وقت ومعاودة الدراسة في المعهد وتحقيق أحلامه.

تراجع القطاع التعليمي في لبنان بشكل كبير في السنوات الأخيرة، فالأزمة الاقتصادية التي تفجّرت خريف العام ٢٠١٩، وما لحقها من جائحة كورونا ثم أزمة الكهرباء والمحروقات وصولًا إلى الحرب المستعرة اليوم، وقبلها أزمة سلسلة الرتب والرواتب والإضرابات الطويلة والمتكرّرة للأساتذة في القطاع الرسمي، أفرزت مشاكل كبيرة في القطاع دفع ثمنها الطلبة وذووهم والمعلمون على حدّ سواء، وبالتالي فإن اندلاع الاشتباكات على الجبهة الجنوبية سدّدت ضربة قاضية إلى القطاع المترنّح والمتأزم أصلًا وبالأخص في جنوب لبنان.

انطلق الموسم التعليمي في لبنان للمدارس الرسمية في التاسع من تشرين الأول، أي بعد يومين فقط من عملية «طوفان الأقصى»، وقد استمر التلامذة في القرى الحدودية في الذهاب إلى مدارسهم خلال الأسابيع الأولى للحرب، إلا أن اشتداد العمليات العسكرية أدى إلى إقفال عشرات المدارس الرسمية والخاصة في الشريط الحدودي. ومع بدء عمليات النزوح باتجاه القرى والبلدات البعيدة نوعًا ما عن مناطق الحرب، وجد آلاف التلامذة أنفسهم بلا مدارس.

العائلات النازحة واجهت صعوبات كبيرة في تدبّر أمور الحياة في البلدات التي نزحت إليها، فالمساعدات والتبرعات التي كانت تُجمع من المغتربين والمقتدرين والأحزاب المسيطرة في المنطقة، لم تكن لتلبي حاجات هذه العائلات، وخاصة مع اتساع رقعة المواجهات وزيادة أعداد المهجّرين، وفي ظلّ وضع اقتصادي متردٍّ أصلًا في الجنوب حتى قبل اندلاع الحرب، كما هو الحال في كلّ لبنان.

الحرب التي كانت تبدو في البداية مضبوطة وضمن قواعد الاشتباك المرسومة، أخذت تتفلّت من عُقالها شيئًا فشيئًا، فجمعت العائلات ما سهُل حمله وغلا ثمنه، وهامت على وجهها بحثًا عن سقف يؤويها في القرى والبلدات المجاورة، حيث يكون الخطر على الحياة أقلّ نسبيًا. ففي الحروب لا توجد أماكن آمنة تمامًا.

أكثر من عشرة آلاف طالب في المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية موزّعين بين القطاعين الرسمي والخاص، وجدوا أنفسهم بلا مدارس فجأة، قلة منهم أسعفها الحظ فالتحقوا بمدارس في القرى التي نزحوا إليها، وخاصة في مدارس القطاع الخاص.

في المقابل فإن ما يقارب ألفي تلميذ في التعليم الرسمي أمضوا الفصل الأول الدراسي من الموسم التعليمي ٢٠٢٣ - ٢٠٢٤ في منازلهم دون أن يحصلوا على أي خدمات تعليمية، إلى أن قامت وزارة التربية وبعد تلقّيها دعمًا من اليونيسيف بقيمة مليوني دولار، باستحداث عشرة مراكز تعليمية في مناطق النزوح، مزودة بالكهرباء والانترنت، ليتاح للتلامذة التواجد فيها ومتابعة دروسهم من بُعد. وقد عملت وزارة التربية على تدارك الأمر، فأنشأت مراكز إيواء تعليمية في بعض المناطق التي تحوي الكثير من المهجّرين مثل صور والنبطية، كما وزّعت على الطلاب أجهزة كومبيوتر صغيرة «تابليت» وبطاقات شحن إنترنت لمتابعة التعليم من بُعد، إلا أن تردّي خدمة الإنترنت والازدحام في البيوت والمراكز التي استقبلت المهاجرين، بحيث كانت تقطن أكثر من عائلة في البيت الواحد، مما جعل عملية المذاكرة شبه مستحيلة.

الحرب تقترب من دخول سنتها الثانية ومستقبل الطلاب مجهول:

تقترب الحرب اليوم من شهرها العاشر، معظم المهجّرين نزحوا عن منازلهم في الخريف، وأمضوا الشتاء القارس في المنازل التي فُتحت أبوابها لهم، وغير المجهزة بالحد الأدنى من أسباب الحياة، قبل أن يدهمهم الصيف مع الحرارة والرطوبة، كلها عوامل تجعل العملية التعليمية أكثر صعوبة.

الأستاذة هناء ضاهر تعمل في سلك التعليم منذ سنوات طويلة، تسكن في بلدة حولا الحدودية وتدرّس مواد الاجتماعيات في مدرسة البلدة الرسمية بالإضافة إلى مدارس أخرى خارج الشريط الحدودي.

اضطرت إلى النزوح مع عائلتها بعد اندلاع الحرب، وقد واجهت صعوبة كبيرة في إيجاد سكن في البداية، ثم سكنت مع شقيقها وعائلته لمدة شهرين. خلال هذه الفترة كان التعليم الرسمي في المناطق الحدودية معلّقًا بشكل كامل، وقد بقي الوضع على حاله لمدة شهرين إلى أن ارتأت وزارة التربية استكمال التعليم من بُعد كما ذكرنا أعلاه.

تروي الأستاذة ضاهر معاناتها مع التعليم من بُعد. ففي البداية لم يتوفر للطلاب متطلبات التعليم من بُعد من كهرباء وانترنت وأجهزة إلكترونية، وحتى بعد تأمين الوزارة بعض المستلزمات وبطاقات الانترنت فقد استمرت المشكلة، فبعض العائلات فيها أكثر من تلميذ، يجب أن يدرسوا جميعًا بواسطة جهاز واحد، وهو أمر يُعيق العملية التعلّمية، بالإضافة إلى رداءة خدمة النت وعدم توفّر التيار الكهربائي إلا في ساعات محدودة في اليوم.

كما أشارت ضاهر إلى المشكلة الكبيرة التي عانى منها المعلمون والطلاب على حدّ سواء، بسبب أصوات المدافع والغارات المتزامنة مع الحصص التعليمية والخرق شبه اليومي لجدار الصوت وما يرافقه من دويّ مرعب، الأمر الذي كان يعيق العملية التعليمية بسبب ما يصاحبه من قلق وخوف لدى الطلاب فيضطر المعلمون إلى إيقاف الحصة.

ألغت وزارة التربية الامتحانات الرسمية للشهادة المتوسطة هذا العام، وهو أمر غير مرتبط بالوضع في الجنوب، فقد تمّ إلغاء الامتحان أكثر من مرة في السنوات الماضية، لأسباب مختلفة مثل الإضرابات أو عدم الجاهزية اللوجستية لإجراء الامتحان.

وقد كانت هناك مطالبات لإلغاء امتحانات الشهادة الثانوية العامة هذا العام في ظلّ الأوضاع الأمنية الاستثنائية التي تعيشها البلاد وخاصةً مع توسّع رقعة الغارات وزيادة وتيرة خرق جدار الصوت في أكثر من منطقة.

قصف على الجنوب، المصدر: جريدة الشرق الأوسط

وزير التربية عباس الحلبي أصرّ على إقامة الامتحانات الرسمية للشهادة الثانوية العامة وامتحانات البكالوريا الفنية والتقنية، معتبرًا أن إلغاء الامتحانات وإعطاء الطلاب إفادات من شأنه أن يؤثّر على الطلاب سلبًا في المستقبل، خاصةً إذا أرادوا استكمال تعليمهم في الخارج، كما رفض الحلبي فكرة سلخ طلاب الجنوب عن الباقين واستثنائهم من الامتحانات، باعتبار أن الأمر سيعود بالضرر عليهم لاحقًا بحسب رأيه.

وقد دعا الحلبي اللجّان المكلفة وضع الامتحانات الرسمية للشهادة الثانوية العامة بفروعها الأربعة والتعليم المهني، بالتساهل في الأسئلة لإعطاء الفرصة لأكبر عدد ممكن من الطلاب للنجاح.

وعن التحضير للامتحانات الرسمية، تقول الأستاذة ضاهر أنهم واجهوا كمعلمين مشاكل كبيرة، أولًا بسبب ضيق الوقت حيث توقّف التعليم بشقيه الحضوري ومن بُعد لمدة شهرين، بالإضافة إلى التوتّر الكبير الذي عاشه الطلاب بسبب التخبط طوال العام حول مصير الامتحانات الرسمية، ناهيك عن صعوبة الدراسة والمذاكرة في ظلّ الظروف القاهرة المذكورة.

خلال تقديم الامتحانات الرسمية، حصل أكثر من خرق لجدار الصوت، ما أثر على تركيز الطلاب وخلَق جوًّا واسعًا من التوتّر لديهم، بالإضافة إلى صعوبة التنقل والوصول إلى مراكز التقديم البعيدة، كل هذا في ظلّ أزمة اقتصادية خانقة تعيشها أُسر الطلاب التي نزحت من قراها ووجدت نفسها بلا مداخيل، وتلاشت المبالغ التي كانوا ادّخروها سابقًا بسرعة، وهي مبالغ قليلة غالبًا باعتبار أن لبنان يعيش أزمة اقتصادية واجتماعية منذ عدة سنوات، والمساعدات التي تحصل عليها الأُسر من الأحزاب الفاعلة والجمعيات الأهلية، بالكاد تكفي لسدّ الرمق وتأمين الاحتياجات الضرورية والملحّة.

عدد من المهجرين من قرى الشريط الحدودي، اشتكوا من التمييز الطبقي والحزبي بين الطلاب النازحين، فالطلاب المسجّلين في المدارس التابعة للمؤسسات الحزبية، والتي تمتلك عدة فروع وفي أكثر من بلدة جنوبية، كمؤسسة «المهدي» التابعة لـ«حزب الله» التحقوا ببساطة في فروع هذه المدارس القريبة من المكان الذي تهجّروا إليه، بعد توقف الدراسة في الفروع المتواجدة داخل الشريط، بينما عانى الطلاب من المدارس الأخرى في إيجاد مدارس بديلة، خاصة وأن الموسم الدراسي كان قد انطلق قبيل اندلاع الحرب، بينما دفع طلاب القطاع الرسمي الثمن الأكبر، وبقوا لمدة شهرين بلا أي تعليم.

معاناة كبيرة لطلاب الجامعات:

وضع طلاب الجامعات لم يكن أحسن حالًا. فالجنوبيون يعانون بالأساس من قلة الجامعات والكليّات في القطاعين الرسمي والخاص، ويضطر سكان القرى القريبة من الشريط، لتسجيل أبنائهم في جامعات في النبطية وصور وصيدا، مع ما يترتّب عليه الأمر من كلفة مالية كبيرة، سواءً لتأمين المواصلات إلى الجامعة في الأيام الدراسية، أو في حال استئجار غرف لأبنائهم قرب الجامعات أو في حرَمها.

الحرب فاقمت الأزمة بطبيعة الحال، فبالإضافة إلى التهجير وتكلفته المادية المرتفعة، وقلة المساعدات التي تحصل عليها الأُسر، كان على هذه الأخيرة تأمين تكلفة إرسال أبنائهم إلى الجامعات البعيدة، مع ما يترتب على الأمر من تكلفة مادية كبيرة، في الوقت الذي خسرت فيه الأُسر مداخيلها، خاصة وأن معظم سكان الشريط الحدودي يعملون في الزراعة أو يمتلكون مؤسسات تجارية صغيرة، وليس لديهم أي مصادر دخل أخرى.

محمد ن. (١٩ سنة) من قرية حولا الحدودية، نزح مع أهله إلى إحدى قرى قضاء بنت جبيل خارج الشريط الحدودي.

يدرس محمد في جامعة «فينيسيا» الخاصة المتواجدة عند الساحل الجنوبي، وهي تتبع لـ«حركة أمل» أحد أهم الأحزاب الفاعلة في المنطقة، وتبعد عن منزل محمد في حولا أكثر من ٥٠ كلم.

يقول محمد إنه انتسب لهذه الجامعة بالأساس، بسبب غياب فروع الجامعة اللبنانية في القرى الجنوبية، وبسبب التكلفة العالية للانتقال والعيش في بيروت بحال أراد ان يدرس اختصاصه في العاصمة بيروت.

اضطر والد محمد لتقديم التماس عند مسؤول حزبي في قريته، ليحصل على حسم على رسوم الجامعة، ومع ذلك بقي المبلغ كبيرًا. قبل الحرب كان محمد يعمل في التدريس الخصوصي بالإضافة إلى أعمال يومية اخرى تساعده على تحمّل مصاريف الجامعة.

اليوم، وبعد النزوح من حولا، أصبحت الأمور أصعب بشكل لا يقارن، فلم يعد باستطاعة محمد تأمين أي مدخول إضافي لمساعدة ذويه، يقول إن تكلفة النقل إلى الجامعة تتخطى المئة دولار أميركي شهريًا، أي أكثر من نصف المساعدات التي تحصل عليها عائلته، ولذلك فقد اضطر للامتناع عن الذهاب إلى الجامعة في الكثير من الأيام لتوفير المصاريف.

يقول محمد إن الجامعة رفضت إعطاء المحاضرات (أو جزء منها) وإجراء الامتحانات من بُعد، كما كان يحصل فترة جائحة «كوفيد ١٩»، رغم طلبات الطلاب المتكررة وخاصة أولئك المهجرين من قراهم الحدودية.

السيدة مريم ك. أم لثلاثة أطفال، نزحت مع زوجها وأولادها من قرية عيتا الشعب في القطاع الغربي، ولجأوا إلى إحدى القرى في قضاء صور خارج الشريط الحدودي، تقول مريم إن الحظ حالفها مع أسرتها، إذا جاز التعبير، لأنهم نزحوا في الأيام الأولى للحرب، إثر سقوط صاروخ قريب من بيتهم ملحقًا ضررًا نفسيًا كبيرًا بأطفالها.

فالتهجير المبكر ساعدها في إيجاد مدرسة بديلة لأطفالها، حيث لم يكن قد مضى وقت طويل على بدء العام الدراسي، فالتحق أبناؤها الثلاثة في مدرسة خاصة مستفيدين من صداقة قديمة تجمع زوجها مع مدير المدرسة.

تقول مريم إن أطفالها وجدوا في البداية صعوبة في الاندماج في المدرسة الجديدة، فكلّ شيء كان جديدًا عليهم، ولم تجد الوقت والفرصة الكافيين لتجهيز أطفالها نفسيًا لهذه الخطوة، وهو الأمر الذي يحصل عادة في الحالات الطبيعية.

تقرّ مريم بأن إدارة المدرسة ومعلميها وحتى الطلاب، لعبوا دورًا إيجابيًا في مساعدة أولادها على الاندماج في عالمهم الجديد، إلا أن الصعوبة الأساسية كانت في تغيّر المنهج التعليمي على أولادها، فتراجع مستواهم بشكل ملحوظ، وما يزيد الأمور صعوبة بالنسبة للأم، هو أنها تجهل ما سيحصل في الأشهر القادمة، فهل تتوقف الحرب ويعودون إلى بلدتهم عيتا الشعب؟ وهل سيكون هناك فرصة لعودة التعليم في مدارس البلدة المدمّرة في القريب العاجل؟ هل تتوسّع الحرب ويتهجرون مرة أخرى إلى مكان أبعد؟ هل سيجد أولادها الفرصة مرة أخرى للحصول على الخدمات التعليمية؟ كلها أسئلة تؤرّق بال مريم وزوجها اليوم.

معاناة تغيير المدرسة لم تقتصر على أبناء الشريط الحدودي، تسكن منى ف. مع زوجها وابنتيها في قرية السلطانية خارج الشريط الحدودي، وتدرس ابنتاهما في مدرسة بعين إبل داخل الشريط الحدودي.

توقّف التعليم الحضوري في المدرسة بعد أيام فقط من انطلاقة العام الدراسي بسبب اندلاع الحرب، واعتمدت المدرسة نظام التعليم من بُعد، إلا أن المشاكل التقنية وبطء الإنترنت، بالإضافة إلى عدم إيمان الوالدين بجدوى التعليم من بُعد، دفع بهما إلى اتخاذ قرار صعب من مختلف النواحي المادية والنفسية، ونقلا ابنتيهما إلى إحدى المدارس المعروفة في مدينة صور.

أضرار طالت فان نقل طلاب بعد غارة استهدفت سيارة على طريق كفردجال-النبطية، المصدر: جريدة النهار

منى التي تعمل كأستاذة ثانوية، تقول إن ابنتها الصغرى خسرت في السابق عامين دراسيين كاملين بسبب جائحة كورونا، وهي لا تريد أن تخسِّر ابنتها عامًا إضافيًا.

القرار كان صعبًا للغاية، فأولًا هو استلزم جهدًا لإقناع مدير المدرسة بالسماح للفتاتين بالالتحاق بالصفوف الدراسية بعد أكثر من ثلاثة أشهر على انطلاقة العام، وثانيًا بسبب بُعد المسافة بين السلطانية وصور (حوالى ٢٢ كلم)، مما كان يضطر الفتاتين للاستيقاظ بشكل مبكر جدًا، والذهاب مع والدهما إلى منطقة في منتصف الطريق إلى المدرسة، والركوب بأحد الباصات التي تصل إلى المدرسة في صور.

بالإضافة إلى بُعد المسافة وصعوبة التأقلم مع المدرسة الجديدة والخوف من المستقبل المجهول، كانت منى تشعر بقلق على ابنتيها بسبب خطورة الطرق مع تزايد ظاهرة استهداف السيارات وخاصة في ساعات الصباح المبكر.

بالنسبة للعام القادم، لا يعرف الوالدان ما سيكون مصير تعليم ابنتيهما، فبحال توقف الحرب، ربما سيكون من الأسهل من الناحيتين المادية والجسدية إعادة ابنتيهما إلى مدرستهما القديمة في عين إبل، لكنهما يريان في الوقت نفسه أنه هناك حاجز نفسي أمام العودة، وهما لا يريدان إعادة التجربة المُرّة التي عاشاها مع الفتاتين هذا العام.

أحد أهم الأسئلة التي تتبادر إلى ذهن الناس اليوم: «ماذا عن اليوم التالي للحرب؟»، نذكر بعد انتهاء حرب تموز في العام ٢٠٠٦ كيف عاد المهجرون إلى قراهم فور إعلان وقف إطلاق النار، وعادت الحياة إلى طبيعتها بشكل سريع مع انطلاق ورشة الإعمار في ظلّ توفّر أموال التعويضات، كما أن الدمار لم يكن كبيرًا يومها كما هو الحال الآن، ولم تستمر الحرب لأكثر من ٣٣ يومًا.

أما الحرب التي تدور رحاها اليوم في جنوب لبنان، والتي ظنّ كثيرون في البداية أنها لن تدوم لأكثر من شهر أو شهر ونصف على أبعد تقدير، فها هي تقترب الآن من شهرها العاشر، آلاف المنازل والوحدات السكنية دمّرت أو تضرّرت بشكل يجعلها غير صالحة للسكن، بالإضافة إلى مئات المؤسسات التجارية والصناعية ومساحات شاسعة من الأراضي الزراعية لن تكون صالحة للزراعة في المدى الكبير بسبب القنابل الفوسفورية.

الأضرار الكبيرة لحقت أيضًا بالمؤسسات التعليمية من مدارس ومعاهد ومراكز تدريس، فبعض المؤسسات أصيبت بشكل مباشر ما جعلها غير قابلة للترميم، فيما تعرض قسم كبير منها للتصدع والتشظّي بفعل سقوط صواريخ بالقرب منها.

عدد كبير من المهجرين شرعوا في

هلع واصابات بين الطلاب، المصدر: جريدة النهار

تسجيل أبنائهم للموسم الدراسي ٢٠٢٤ - ٢٠٢٥ في مدارس ضمن المنطقة التي نزحوا إليها، في ظلّ ارتفاع منسوب التشاؤم باقتراب العودة إلى الديار، الأمر الذي حتى وإن تمّ، فمن المستبعد انطلاق العام الدراسي في القرى الحدودية قريبًا في ظلّ الدمار الهائل الذي لحق بالبنى التحتية فيها ما يجعل انطلاقة عام دراسي جديد في القريب العاجل أمرًا شبه مستحيل.

بالتوازي مع معاناة طلاب جنوب لبنان وذويهم والمستقبل القاتم الذي يلوح أمامهم، وفي ظلّ تراجع جودة الخدمات التعليمية في الجنوب خلال الحرب، وهو قطاع أصيب أصلًا بتصدعات كبيرة في السنوات الأخيرة بفعل الخضّات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها البلاد إضافة إلى جائحة «كوفيد ١٩»، كان الناشطون والمؤثرون والإعلاميون الذين يدورون في فلك الثنائي الشيعي أي «حزب الله» و«حركة أمل»، يحتفون بحصول طلاب من الجنوب على بعض المراكز الأولى في الامتحانات الرسمية المهنية، ويحشرون مناشيرهم بعبارات لا تخلو من المذهبية والمناطقية أحيانًا، ويبالغون في الإضاءة على ما يرونه إنجازًا كبيرًا، في وقت يعرف الجنوبيون واللبنانيون أن الامتحانات الرسمية هذا العام شابَها الكثير من الشوائب، لناحية التساهل في المراقبة والتصحيح، ناهيك عن تعديل المناهج وتخفيفها، بالإضافة إلى فضائح خرجت إلى الإعلام متعلّقة بتسريب أسئلة بعض الامتحانات قبل ساعات من موعدها.

طلاب الجنوب وكل الطلاب في لبنان والعالم لهم الحق في الحصول على خدمة تعليمية جيدة، ضمن معايير صحية وآمنة، تتيح لهم الوصول إلى المعلومات والخضوع لامتحانات عادلة وفق معايير علمية ودقيقة.

الحرب في الجنوب حرمت الطلاب فيه من حقهم في الحصول على العلم والمعرفة، وهذا أمر يتحمل مسؤوليته كل مَن وقف خلف اندلاع هذه الحرب، أما الاحتفال بحصول تلميذ جنوبي أو أكثر على درجة متقدمة في اختصاص ما، فما هو إلا تعمية وحرفٍ للأنظار عن المشكلة الأساسية. ■

تلامذة يلهون في ملعب المدرسة، المصدر: موقع نيو تي في

هل لا يزال ممكناً أن يخرج من الطائفة الشيعية مشروعٌ سياسيٌّ معارض للثنائي؟

علي خليفة*

ينشر هذا العدد من «الفان رقم ٤» آخر حلقات ثلاثية تتناول بعض الإشكاليات التأسيسيّة المطروحة للنقاش والتي تخرج إلى العلن على وجه الخصوص غداة قيام أي مشروع سياسي معارض للثنائي «أمل» - «حزب الله» من داخل الطائفة الشيعية. هذه الموضوعات المتّصلة، الملحّة، الشائكة، تفرض نفسها على بساط البحث ويأخذها بالمقابل بعض المتربّصين والمشكّكين والمناوئين إلى الفضاءات العمومية بغرض المساجلة والمماحكة وتشتيت الانتباه عن القضية الأساسية المتمثلة بإطباق الثنائي أمل - «حزب الله» على العمل السياسي داخل الطائفة الشيعية واختزالها واستبدال ولائها وتغييب ثقافتها وأخذ الحالة الطائفية لدى الجماعة الشيعية في لبنان إلى صورتها القصوى مع احتكار وكالة النطق الحصرية بالقضايا الوطنية كالمقاومة والتحرير والاستيلاء على الأدوار الوظيفية للدولة في الدفاع والأمن والاقتصاد والمجتمع. ثلاثة عناوين نفهم من خلالها متطلبات المشروع السياسي المعارض للثنائي: هل يقدّم البعد الوطني أم البعد الطائفي؟ وهل الحال القائمة في الجماعة الشيعية يمكن اصطلاحها تحت مسمّى «المسألة الشيعية» على وجه التحديد أم أن ما تعاني منه الجماعة الشيعية تعاني منه أيضًا باقي الجماعات الطائفية على وجه الإجمال؟ وصولاً إلى المشروع السياسي المعارض للثنائي؛ هل هو تاريخ يكرّر وجوهه أم خيار يُثبت وجوده؟

الحلقة الأخيرة

المشروع السياسي المعارض للثنائي الشيعي: هل هو تاريخ يكرّر وجوهه أم خيار يثبت وجوده؟

شوارد اليسار: وجوه الحلقة المفرغة للتغيير المفقود:

بعد مقاربة جدلية البعد الوطني والبعد الطائفي في العمل السياسي داخل البيئة الشيعية، تبيّن أن رفض الطائفية السياسية الذي ترفعه شعارًا الشخصيات السياسية من ضمن المظلّة اليسارية على الأعمّ وتنتقد تحت لوائه النظام السياسي اللبناني وتوافقاته، وبنَت عليه أحزابٌ وتنظيمات مشروعيتها ونضالها السياسي، كـ«الحزب الشيوعي» و«منظمة العمل الشيوعي» و«منظمة العمل اليساري الديمقراطي العلماني» غير قادر على مواجهة «حزب الله» الضارب عميقًا في تعقيدات الهوية السياسية للشيعة، حيث تتشابك المصالح الوطنية مع الانتماءات الطائفية بطرق تساهم في تشكيل المشهد السياسي بشكل مستمر. يمكن اقتفاء هذا الخطاب لدى النائب «التغييري» الياس جرادي الذي غطّى ترشّحه الحزب الشيوعي اللبناني وما لبث أن ارتمى في أحضان الممانعة وأدبياتها بل امتنع عن ممارسة أي فعل سياسي من شأنه مواجهة «حزب الله»، فانبرى مبرّرًا الحرب المسمّاة بحرب المشاغلة على الحدود الجنوبية ومن قبل رفَض انتخاب مرشّح قوى المعارضة لرئاسة الجمهورية بوجه «حزب الله». ذلك لأن رفض الطائفية السياسية في الحلقة المفرغة لشوارد اليسار يقوم على إنكار الطائفة كواقع حال اجتماعي. هذا الإنكار يمنع أمثال الياس جرادي أو وسيم غندور أو زكي جمعة وغيرهم أيضًا من وعي ما يفعله «حزب الله» في العمل السياسي بأدبيات وأدوات شيعية (المبرّر «الإيماني» للحرب والتكليف الشرعي). وعلاوة على إنكار البعد الطائفي كواقع حال اجتماعي بواسطة طروحات رفض الطائفية السياسية (هذا الرفض شكلي هو الآخر لأنه يتمّ بتصنيفات على أسس طائفية أيضًا)، فإن حلقة اليسار مهيّأة ببنيتها الإيديولوجية القاعدية للتأقلم مع بنيات إيديولوجية وافدة أو مسقطة كالعقيدة الدينية التي أقام عليها «حزب الله» مشروعه السياسي. مقابلات الياس جرادي المتكرّرة تحضن سرديّة «حزب الله» وتتوخّى نفس نواتجها وتتموضع على قاب تماسٍ مع مواقع جذب مشروع الممانعة ومنطلقاته. في أحد اجتماعات لائحة التغيير في دائرة الجنوب الثانية مع مجموعات اغترابية في الولايات المتحدة، جاهر مرشّح الحزب الشيوعي في لائحة التغيير في الزهراني أيمن مروه بأن «أميركا هي العدو». إذن، فالمشروع السياسي المعارض للثنائي الشيعي من حلقة اليسار لا يوفّر الوجوه المطلوبة لخيار التغيير الذي يثبت وجوده، وسيفشل اليسار بمقارعة «حزب الله» جذريًّا أي الوقوف بوجه «المسألة الشيعية» وتفكيكها، بل سينقاد تلقائيًّا لمواقع جذب في مشروع الممانعة على حساب المشروع البديل.

تجارب الاعتراض الشيعي السابقة: لو دامت وما آلت إليه

تنازعتها الوجوه الوريثة للعائلات التقليدية، أو تنظيمات حزبية ظرفية لم تقدّم فكرًا سياسيًّا شاملاً وجذريًّا بقدر ما قدّمت برامج ظرفية لاستحقاقات الانتخابات ثم خمدت بعدها، فضلاً عن تنظيمات علمائية دمجت بنجاح البعد الوطني والبعد الطائفي. لن يتمّ في ما يلي عرض كلّ تجربة على حِدة، بل ستتمّ الإحاطة ببعض الوضعيات التي تسمح بتقييم هذه التجارب والوقوف عند أسباب تعثّرها. وفي معرض التقييم، يتبدّى الخيط الرابط لمقالتنا المتمحورة حول إشكالية تكرار وجوه الاعتراض بمقابل ثبات المشروع السياسي للتغيير المنشود وديمومته.

لمرات ثلاث، طفق أحمد الأسعد يستفتي الجنوبيين، آخرها من خلال حزب تيار الانتماء اللبناني، منذ اعتكاف رئيس مجلس النواب الأسبق كامل الأسعد عن الترشّح في انتخابات عام ٢٠٠٥، دون أن يستنهض القاعدة الأسعدية بمشروع مستدام ينفض الغبار عن فكر سياسي يمكن أن يكون الندّ للممارسة السياسية للثنائي أمل - «حزب الله»[1]، اكتفى بالشعارات الانتخابية: «تغيير الواقع نحو مستقبل زاهر ودولة تحتضن طاقات الشباب والشابات وأحلامهم» ولم يتعرّض بشكل جذري لحالة «حزب الله»، وما اصطلحناه تحت مسمّى «المسألة الشيعية». ترافق مع تجربة أحمد الأسعد السياسية المقتصرة على انتظار محطات الانتخابات، الحملات الدعائية والأموال الطائلة التي أنفقها في انتخابات ٢٠٠٩ بدل الاستثمار بمشروع سياسي مستدام (يقدّر مقرّبون بنحو ٣٠ مليون دولار ما حصل عليه أحمد الأسعد من المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة الأميركية).

من جهته، يرفض رياض الأسعد تصنيفه ضمن زعامة آل الأسعد التقليدية ولكنه لم يشكّل المرشح المعارض الجذري لـ«حزب الله» في الجنوب بل شتّت أصوات المعارضة في دائرة الجنوب الثانية بتسجيل لائحة غير مكتملة في انتخابات ٢٠٢٢، وهو دأب على الترشّح مرارًا في إطار ترسيم حدود نفوذ محلية لعائلته في الدائرة الثانية بمقابل النفوذ التقليدي للعائلة الأسعدية في الدائرة الثالثة.

بالمحصلة، عائلات الزين وعسيران والأسعد، في مقدّمة تجارب الاعتراض المعتمدة على استثمار إرث عائلي بأبعاده السياسية والاجتماعية، وبالتالي يمكن أن يشكل اجتماعها أرضية شعبية ضرورية[2] ولكن ينقصها الفكر السياسي والطرح الشامل والعمل السياسي التنظيمي المستدام ونظرتها الصريحة لحالة «حزب الله» و«المسألة الشيعية».

في ما خلا النشاط السياسي المحض، تقدّمت إلى الواجهة تجارب اعتراض علمائية جمعت بين البعد الوطني والبعد الطائفي في معارضتها. وتألفت من بعض رجال الدين «المستقلين» في الوسط الشيعي. كان منها «اللقاء العلمائي المستقل» العامل من أجل فتح حوار والانفتاح على المرجعيات الشيعية داخل الطائفة في لبنان، ونسج أفضل العلاقات معها وسائر المرجعيات اللبنانية. ولم يقم اللقاء على منطق الضدية حيال أي طرف أو إطار شيعي. لكن تفاوتت ردود الفعل منه ولم يسعَ بدوره لتأكيد مشروع بديل قابل للاستحقاق بوجه مشروع «حزب الله». وهذا ما يمكن استشفافه لاحقًا من اللقاء الجامع والمهيب الذي أعلنه العلامة السيد محمد حسن الأمين، ولكنه لم يطرح مثلاً مشروع الحياد أو السلام فدفع ثمن مقايضات لعبة المحاور وإبرام التسويات والصفقات مع الطرف الأقوى وذي السطوة، أي «حزب الله». وهذا ما يجدر أن يشكّل مصدر دروس مستفادة لمستقبل مشروع الاعتراض الشيعي الناشئ.

حركة «تحرُّر»: مسار اعتراض ناشئ

من خلال الاطلاع على الوثيقة الأساسية لإطلاق حركة تحرُّر الشيعية المعارضة يمكن تلخيص أهم البنود في مشروعها السياسي والفكري ومنها:

- **أولاً:** هي حركة سياسية معارضة للشيعية السياسية أي «حزب الله» و«حزب الله» وتريد مواجهة سيطرة الفريقين على الطائفة الشيعية.
- **ثانيًا:** تؤمن بنهائية الوطن اللبناني والتنوع الديني واحترام حقوق الانسان وتؤكّد على التنوّع داخل الطائفة الشيعية مع تأكيد الوحدة الوطنية.
- **ثالثًا:** تدعو لإقامة النظام وتطبيق الدستور وترفض ممارسات الشيعية السياسية بالالتفاف على الدستور والانقلاب عليه.
- **رابعًا:** تعتبر المقاومة حالة ظرفية غير دائمة وتنشأ بمواجهة المحتل ولا يكون لها أي دور آخر (لم تُلزم الحركة نفسها بمقاومة دائمة لا تنتهي مع إسرائيل).
- **خامسًا:** تعتبر الحركة التديّن شأنًا فرديًّا وترفض الممارسات القائمة على نسق «التشيّع الصفوي».
- **سادسًا:** تؤمن الحركة بالحداثة وترفض تقييد الممارسات السياسية أو الفكرية أو الاجتماعية لاعتبارات دينية. (يمكن القول إن ذلك تبني للعلمانية ولو دون تسميتها).
- **سابعًا:** تؤكّد الحركة على انتماء لبنان إلى جامعة الدول العربية والأمم المتحدة وترفض عزل لبنان عن انتمائه العربي.
- **ثامنًا:** تسعى الحركة لتطبيق الدستور وتلتزم بمبادرة السلام العربية وتدافع عن الحريات وتدعو لتطبيق القرارات الدولية.

هذه أبرز مواقف الحركة وهي اعترضت على فتح جبهة الجنوب لدعم الشعب الفلسطيني وتطالب بعدم الانجرار إلى الحرب مع إسرائيل وهي تتبنّى الحملة الإعلامية والإعلانية ضد الحرب.

بهذا المشروع السياسي والمواقف المُعلنة، تعقد الحركة جدواها وتحدّد موقعها في خريطة المعارضة الشيعية. وهي انطلقت عشية معركة طوفان الأقصى والحرب الإسرائيلية على قطاع غزة ونشطت بشكل مستمر إعلاميًّا وثقافيًّا وسياسيًّا وهي تحاول إطلاق تيار سياسي شيعي معارض لـ«حزب الله» و"حزب الله»»، ومواقفها السياسية تركّز أكثر على دور الحزب ورفضه. ويظهر مدى تجاوب الرأي العام اللبناني مع حركة تحرّر واعدًا، في مختلف المناطق والرأي العام الشيعي خاصة، في ظلّ تفاقم الأزمات في لبنان والمنطقة ولا سيما الحرب على قطاع غزة والجبهة الجنوبية. ويتبيّن من خلال الرسوم البيانية لقاعدة بيانات الهيئة العامة الناشئة لـ«حركة تحرّر» بحسب متغيّر العضوية الرسمية في الحركة عن طريقة الانتساب أو الصداقة أو التأييد (الرسم رقم ١) وبحسب التوزيع الجغرافي على الدوائر (الرسم رقم ٢) ومتغيّر مصادر الدعم (الرسم رقم ٣) والأنشطة المتنوّعة (رسم رقم ٤).

الرسم رقم ١: العضوية الرسمية في الحركة عن طريقة الانتساب أو الصداقة أو التأييد

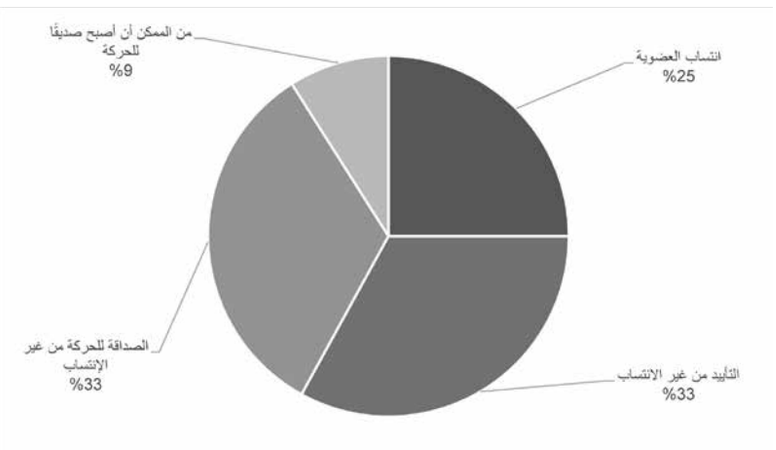

الرسم رقم ٢: التوزيع الجغرافي للهيئة العامة على الدوائر

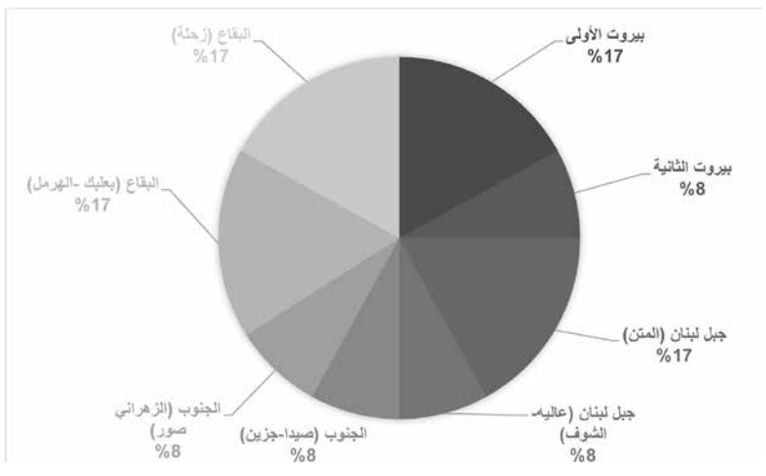

الرسم رقم ٣: مصادر الدعم

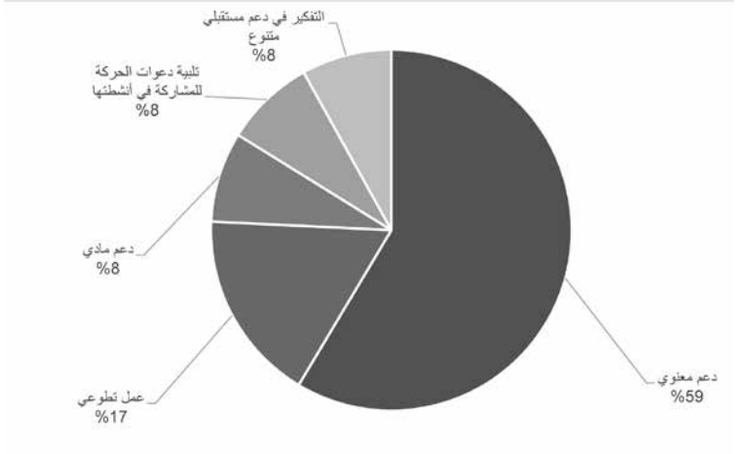

الرسم رقم ٤: الأنشطة المتنوّعة في حركة تحرّر

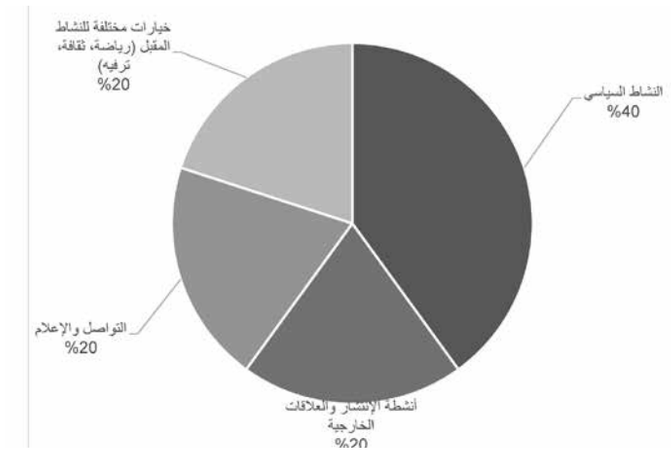

(١) فكر كامل الأسعد وممارسته السياسة يشكلان مصدرًا مهمًّا للاستلهام بمواجهة «حزب الله» ببديل سياسي وثقافي واجتماعي إذ كان يطرح مشروع الحياد خلال الحرب الأهلية وتجاه الاحتلال الإسرائيلي، متمسكًا بثوابت الوحدة الوطنية اللبنانية.

(٢) لا تزال وجوه في عائلة الزين تقدّم حتى اليوم خدمات اجتماعية في نطاق النبطية ومنطقتها في سياق تاريخي ابتداء من جرّ المياه إلى المنازل في الستينيات إلى تأسيس جمعية المقاصد الإسلامية في المنطقة وافتتاح المدارس وتمكين الأهالي.

* أستاذ التربية على المواطنية في الجامعة اللبنانية ومؤسس في حركة «تحرُّر»

رسم رقم ٥: توصيات الهيئة العامة في حركة تحرّر بموضوع الأنشطة المستقبلية المرجوّة

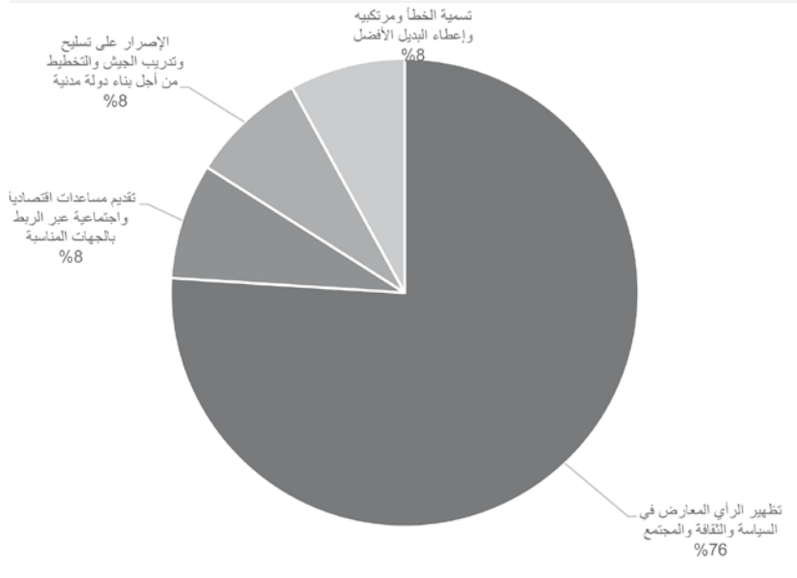

وتدعو الحركة لعقد مؤتمر عام لقوى الاعتراض الشيعي وتحاول الاستفادة من أخطاء المعارضات الشيعية السابقة، وتسعى الحركة للتعاون مع بقية الأطراف اللبنانية المعارضة في الطوائف الأخرى ومجموعات المجتمع المدني.

وتحتاج هذه الحركة الوليدة والمؤلَّفة من نُخب ثقافية وفئات شابة وناشطة على مواقع التواصل الاجتماعي جهودًا وإمكانيات كبيرة من أجل التحول إلى تيار شعبي وسياسي فاعل على الأرض.

في ختام هذه الحلقات، يمكن أن يخرج من الطائفة الشيعية مشروع سياسي مناهض للثنائي الشيعي؛ يواجه بأدبيات الشيعة وأدواتهم مشروع «حزب الله» الإيديولوجي ويكون في الوقت نفسه جزءًا من مشهد وطني جامع منسجم مع طبيعة العقد الاجتماعي اللبناني القائم على ائتلاف الطوائف الدينية ودون إنكاره. إن ما يمكن اصطلاحه تحت مسمّى «المسألة الشيعية» لا ينسجم مع العقد الاجتماعي اللبناني وتقتضي مواجهته من خارج مشروع إلغاء الطائفية السياسية على وجه الحصر إذ إن ما تعاني منه الطائفة الشيعية على وجه التحديد لا تعاني منه باقي الجماعات الطائفية على وجه الإجمال. إن تجارب الاعتراض الشيعي مستقلّة عن مقاربات اليسار التي تخدم ببنيتها القاعدية إيديولوجيا «حزب الله» وعناصر جذب مشروع الممانعة، وحاضنة العائلات التقليدية الشيعية مهمّة على صعيد الواقع الاجتماعي القائم ولكنها غير كافية للإطلالة على مشروع سياسي شامل ومنظّم ومستدام. كما ينبغي مخاطبة الفئات الشابة والالتقاء مع طروحات الحداثة ويكون المشروع السياسي البديل أكثر جذرية لناحية تبنّي خيار الحياد والسلام كبديل جدّي لمشروع حزب الله القائم على استمرارية المواجهة والحرب. ■

«حزب الله» أو مسار التحوُّل إلى المافيا المنظَّمة

عهد حسن نصر الله

محمد عثمان

بدأ عهد حسن نصرالله الذي إذا انغمسنا أكثر في تفاصيل حياته نجد أنه انتقل من البازورية إلى النجف لتلقّي العلوم الدينية في سنٍّ مبكّرة ومن ثم عاد إلى بعلبك برفقة السيد عباس الموسوي ملتحقًا بالحوزة الدينية هناك عام ١٩٧٩ ثم التحق بحركة أمل كنائبِ مسؤولٍ تنظيمي للبقاع ومن ثم عضو مكتب سياسي للحركة إلى حين انقلابه على الحركة ملتحقًا بطلائع الحرس الثوري الذي دخل لبنان مع انتصار الثورة الخمينية في إيران، وبدأ نصرالله بلعب دور فاعل بتقرّبه من قيادات الحرس ومن ثم تقرّبه من مراكز صُنع القرار لدى وليّ الفقيه مع سطوع نجم «حزب الله» في لبنان الذي تدرّج نصرالله ضمن صفوفه من مسؤول ثقافي لمنطقة بعلبك إلى مسؤول تنظيمي في بعلبك ثم مسؤول تنظيمي في بيروت إلى حين ذهابه إلى إيران وخضوعه للعديد من الدورات العسكرية والأمنية وبروز علاقة وطيدة بينه وبين علي خامنئي (المرشد الحالي) فأصبح طفله المدلَّل.

ومع عودة نصرالله إلى لبنان تبوّأ مراكز عسكرية في الجنوب بالاضافة إلى كونه أصبح عضو شورى قرار في الحزب، وازداد تقرّبه من القيادة الإيرانية إلى أن حانت لحظة تسلّمه دفّة القيادة بعد عملية اغتيال عباس الموسوي (قامت بها إسرائيل عبر طائرات مروحية في منطقة تفاحتا في شباط ١٩٩٢).

مع نصرالله بانت ملامح مختلفة لمرحلة جديدة في تاريخ الحزب. فقد استطاع الأمين العام الثالث أن يُدخل الحزب بشكل مباشر في العمل السياسي اللبناني وأن يتميّز بالبراغماتية أكثر من سابقيه (صبحي الطفيلي وعباس الموسوي) بالرغم من إبقائه هذا الحزب في موقعه الراديكالي المتطرّف وإيمانه المُطلَق بمبدأ الدولة الإسلامية الواحدة أو الأمة الإسلامية واعتباره أن لبنان جزء من هذه الأمة وهذا ما ظهَر جليًّا في العديد من خطاباته قبل تسلُّمه الأمانة العامة.

كان لنصرالله باعٌ طويلٌ في محاكاته للواقع اللبناني عبر اللعب على التناقضات وتحيُّن الفُرص كما اتصف بمرونته في العمل السياسي الداخلي مع دخول الحزب الحياة السياسية في انتخابات ١٩٩٢ البرلمانية. فقد كانت أوّل انتخابات بعد اتفاق الطائف وانتهاء الحرب الأهلية اللبنانية وبالرغم أيضًا أنها المرة الأولى الذي يخوض فيها الحزب انتخابات نيابية فقد لعب خطاب نصرالله التعبوي الديني دورًا في دخول هذه الانتخابات بكل أريحية واضعًا نُصبَ عينَيه تحقيق نتيجة تُريح جمهوره تارة وتعطيه غطاء وشرعية سياسيتين من جهة أخرى. وفي ٣ تموز ١٩٩٢ أعلنت صحيفة «العهد» في المانشيت الرئيسية مشاركة حزب الله في الانتخابات النيابية.

وبحسب «العهد» في العدد ٤١٩، فقد «خطا حزب الله في ذلك الحين خطوة جديدة مميّزة على طريق تدعيم التوجّهات الجهادية، فكانت الغاية والهدف استكمال المدى الحيوي للمقاومة، بجعْل الساحة السياسية أحد الروافد التي تسنُد المقاومة وتعطيها بعداً آخر من شأنه أن يضاعف حركتها ويمنع المتربّصين بها من استغلال المواقع السياسية لحرتقات أصحاب النوايا المغرِضة».

وأراد الحزب من خلال «العهد» أن يُظهرَ إعلاميًا أن دخوله العمل السياسي ليس إلا استكمالًا لعمَله الجهادي فهو لا يسعى لمناصب دنيوية، والعكس صحيح تمامًا.

شهدَت تلك الانتخابات صعود نجم «حزب الله» الذي انتزع وحركة أمل معظم المقاعد النيابية الشيعية. فقد فاز الحزب بثمانية مقاعد وشكّل كتلة من ١٢ نائبًا، كما فازت حركة أمل بـ٥ مقاعد وشكّلت كتلة من ١٧ نائبًا وأصبح نبيه بري الحليف اللدود للحزب رئيسًا لمجلس النواب اللبناني.

والواضح هنا أن الحزب من خلال دخوله إلى جانب حركة أمل إلى البرلمان أقصى معظم العائلات السياسية العريقة في بعلبك الهرمل والجنوب اللبناني. وفي حديث للرئيس سليم الحص في إحدى الجلسات الخاصة وردًّا على سؤالٍ إذا كان سعيدًا بوصول حلفائه إلى المجلس النيابي قال: «أخشى أن نكون قد تحوّلنا من مرحلة الاقطاع العائلي إلى مرحلة الاقطاع الديني».

أما بالنسبة لرؤية الحزب فكان الهدف الذي أظهَره إلى العلن أنه يريد أن يحمي ظهر المقاومة لا الوصول إلى السلطة. والمفارقة أنه ما زال متربّصًا بتلك السلطة منذ ذلك العام وخاطفًا لأغلبية الأصوات الشيعية.

إن بداية عهد نصرالله اتصفت باستئثاره بالسلطة فاستطاع إبعاد كلِّ مَن كان مرتبطًا بصبحي الطفيلي وعباس الموسوي من مراكز القيادة والقرار وبنى تشكيلًا هرَميًّا مرتبطًا به بشكل مباشر من أسفله إلى قمّته التي يجلس عليها دون منازع:

- تحجيم دَور كل القيادات البقاعية التي كانت مرتبطة بالشيخ الطفيلي والسيد الموسوي (حسين الموسوي، محمد ياغي وغيرهما).

- عزْل الشيخ حسن سعيد مشيمش الذي كان في مكتب الشيخ الطفيلي ومن ثم اتهامه بالعمالة.

- إبعاد السيد محمد حسين فضل الله عن مراكز القرار ومن ثم تخوينه واتهامه بالفِسق والزندَقة عند إعلانه مرجعيته.

كما حاول نصرالله تطوير العمليات العسكرية في الجنوب اللبناني وفتح في بداية عهده معركة مع إسرائيل في العام ١٩٩٣ وسُمّيت بحرب «السبعة أيام» وأسماها الجيش الإسرائيلي بحرب «تصفية الحساب» فقام خلالها باجتياح جوي للبلاد مستهدفًا مواقع لبنانية وفلسطينية وسورية، وفي اليوم السابع، في ٣١ تموز تنفّس الجنوبيون الصعداء وأُعلن وقف إطلاق نار، وأعلن حينها نصرالله أن «حزب الله» أكثر اقتناعًا بخياراته وأسلوبه.

صورة نصر الله إلى جانب الخامنئي والخميني، المصدر: CNN

وبينما كانت فرص السلام تعمّ المنطقة، ونذكر هنا قمة شرم الشيخ تحت عنوان «صنّاع السلام» في آذار ١٩٩٦، إلّا أن المشهد في لبنان كان مغايرًا. فالمواجهات المتنقّلة بين «حزب الله» وإسرائيل كانت ستقود حتمًا إلى صدام. وفي ٩ نيسان وغُداة مغادرة الرئيس الفرنسي جاك شيراك بيروت، تدهور الوضع العسكري في الجنوب بشكل كبير بعد قصف «حزب الله» كريات شمونة ونهاريا بحوالى ٣٠ صاروخًا، فأطلق المسؤولون الإسرائيليون في ١١ نيسان حربًا باسم "عناقيد الغضب» وسُمّيت في لبنان «حرب نيسان» وكانت أوسع من نظيرتها في تموز ١٩٩٣ فشهدت بالإضافة إلى الأضرار المادية خسائر بشرية كبيرة، حيث لقيَ ٢٥٠ مدنيًّا مصرعهم، كما بان من خلالها حجم الدعم العسكري واللوجستي الإيراني وخصوصًا باستخدام صواريخ «الكاتيوشا»، بحيث تأكّد وصول أعداد كبيرة منه إلى لبنان من إيران عبر سوريا، وكان سعي «حزب الله» الأساسي، من خلال كثافة الصواريخ، إلى إلحاق أكبرالأضرار البشرية والمادية والاقتصادية بالمدنيين الإسرائيليين علّهم يضغطون على حكومتهم لإيقاف الحرب.

أما في الشقّ السياسي فكان للرئيس الراحل رفيق الحريري (الذي اغتيل في بيروت في شباط ٢٠٠٥ وأصدرت المحكمة الدولية الخاصة بلبنان حكمًا على ثلاثة من العناصر المرتبطة بـ«حزب الله» متهمة إياهم بتنفيذ عملية الاغتيال)، كان له دور بارز في إنهاء حرب نيسان ١٩٩٦، كما ساهم بشطب اسم «حزب الله» كمنظمة إرهابية من لوائح الاتحاد الأوروبي.

واذا تعمّقنا في هيكل الحزب الإلهي فقد نرى أن كبرياء نصرالله وتكبّره بدأ يتضاعف مع تضاعف نفوذه وربط كل قيادات الصف الأول بقراره الشخصي. وهنا بدأ نفور بعض الرؤوس الحامية التي تعتبر نفسها أنها أولى بالقيادة منه، وقد تجلّى هذا النفور في محاولة الشيخ صبحي الطفيلي التغيير من داخل الجسم وإطلاق حركته في العام ١٩٩٦

فأعلن عن اسمها في ٢٦ تشرين الاول ١٩٩٧ «ثورة الجياع» ودعا الطفيلي حينذاك إلى العصيان المدني في البقاع والتمرّد بوجه السلطة الحاكمة إلى حين تحقيق مطالب الشعب. كما أصدر قرارًا بمنع النواب والوزراء من دخول منطقة بعلبك الهرمل ثم عاد واستثنى في ٦ تشرين الثاني النواب منه مبقيًا الحظر على الوزراء في مقابل وعد برّي له بمتابعة مطالب «ثورة الجياع»، وفي الوقت الذي لم تسجل الأوساط الإعلامية والسياسية أي اتصال بينه وبين «حزب الله»، بدأ يتردّد صدى «الثورة» في جميع أنحاء لبنان مع ازدياد شعبية الطفيلي على صعيد الوطن.

وعندما شعرت السلطة السياسية بقوة الحركة الانفصالية التي يقودها الطفيلي والتفاف آلاف المطلوبين للعدالة والمطارَدين حوله، قامت بإصدار عفو عام عن الجرائم المرتكَبة قبل ٣١ كانون الأول ١٩٩٥ (نشر في الجريدة الرسمية في ٣٠ كانون الأول ١٩٩٧).

وبالرغم من أن هذه «الثورة» كانت في الشكل ضد السلطة والسياسات الاقتصادية والمالية لرئيس الحكومة الراحل رفيق الحريري إلّا أنها شكّلت في المضمون حركة تصحيحية داخل جسم «حزب الله»، فالكثير من القيادات والكوادر والعناصر التحقت بها وبايَعت صبحي الطفيلي وشكّل الأخير مجلس أعيان من زعماء العائلات والعشائر ومن النُخب السياسية والاجتماعية في بعلبك الهرمل، وعندما وجد الحزب أن دائرة الثورة بدأت تتوسّع وأن إيران بدأت تفقد السيطرة على صنع القرار في معظم المناطق الشيعية البقاعية وفي الضاحية الجنوبية لبيروت، وبعد فشل الوَساطات بلغت الأمور خواتيمها عندما دعا الطفيلي إلى إقامة مراسم "يوم القدس العالمي» في نفس المكان الذي يحيي فيه «حزب الله» المناسبة حينها استعان الحزب بالاحتلال السوري الذي أعطى الأمر للجيش اللبناني بلجمها.

لم يرضَ «حزب الله» عن إعلان العصيان المدني فاتخذ قرارًا يوم ٢٤ كانون الثاني عام ١٩٩٨ بفصل الشيخ الطفيلي من الحزب، وحدثت اشتباكات مسلّحة بين أنصار الأخير وبعض أفراد الحزب في حوزة عين بورضاي يوم ٣٠ كانون الثاني ١٩٩٨، بعد اعتكافه في الحوزة العلمية التي أنشأها مع العديد من المناصرين.

وصلت الاشتباكات إلى ذروتها وقام الجيش اللبناني بفرض طوْق أمني وجعلَ منطقة بعلبك الهرمل منطقة عسكرية، وقد قُتل خلال الاشتباكات الشيخ خضر طليس (نائب سابق) ومواطن آخر من آل اسماعيل مقرّب من الشيخ الطفيلي وضابط في الجيش اللبناني واعتُقل العشرات من مناصري الشيخ. وانتهت ظاهرة الطفيلي المطلبية بعدما صدرت في حقه أحكام قضائية، إلّا أنه لم يُعتقل ولا يزال يُقيم في منزله في البقاع، أنظر/ي، كتاب تاريخ شيعة لبنان، الجزء الثاني ـ من ١٩٥٩ حتى ترسيم الحدود البحرية اصدار «أمم».

إذَن نستطيع القول إن نصرالله قام بوأد «الثورة» التي أنهكته.

بعيدًا عن السياسة والداخل اللبناني اتخذ «حزب الله» منحًى آخر مع بداية عهد نصرالله. فقد ظهَر إلى العلن أنه ذراع إيرانية متقدّمة وعابرة للحدود والجغرافيا وليس كما ادّعى مؤسّسوه إن هدفه مقاومة إسرائيل فقط، إنما أخذ مساره في سياقه الطبيعي المرتبط بـ«الحرس الثوري» وهو مناصرة المستضعَفين في العالم، حسب مبدأ تصدير الثورة في إيران. وفي شهر تشرين الثاني من العام ١٩٩٢ أرسل الحزب العديد من الخبراء على حدٍّ قوله، وبطلب من إيران للالتحاق بالقتال الدائر في البوسنة بوجه القوات الصربية. وهذا ما أكده نصرالله في خطابه في ٢٠١٣/٥/٢٥ حين قال إن مجاهديه ذهبوا إلى البوسنة والهرسك لمناصرة أخوانهم السنَّة هناك! وأتى هذا الخطاب لنصرالله في مجال تبرير دخول قواته إلى سوريا (ما زالت حتى اليوم تُقاتل في الحرب الأهلية إلى جانب النظام)، وردًّا على اتهامه بارتكاب مجازر بأهل السنَّة في سوريا.

وفي سياق مشاركة الحزب في البوسنة نجد أن «الحرس الثوري» الإيراني والحزب كانا يشكلان فريق عمل مشترك وذلك بعد مساندة نظام علي عزت بيغوفيتش في البوسنة الذي كان قد اختار الاعتماد على إيران التي زارها في أيلول ١٩٩٢، مع إرسال إشارات بالتقرّب الإيديولوجي منها.

وبحسب أرشيف الموقع الإلكتروني «مستقبل ويب» فقد دخل مقاتلو «حزب الله» وإيران إلى البوسنة بعد نزولهم في مطار العاصمة الكرواتية زغرب، وتطلّب ذلك ضوءًا أخضر من إدارة بيل كلينتون الذي كان يسعى إلى إنشاء تحالف بين الكروات الكاثوليك والمسلمين البوشناق لصدِّ التوسُّع الصربي في البوسنة، وهي سياسة ينتقدها فيبيس بشدّة ويعتبرها مسؤولة إلى حدٍّ كبير عن مجازر سيربرنيتشا التي اقترفها صرب البوسنة ضد مسلميها. وبطبيعة الحال كان التسليح الإيراني يتدفّق لكل من الكروات والبوشناق عندما كان ذلك ممكنًا، أي عندما كان الكروات والبوشناق المسلمون متحالفين، ليتوقف هذا الإمداد ساعة يتقاتل الطرفان، ثم يُستأنف ساعة تنجح السياسة الأميركية في إعادة ترميم التحالف.

إلّا أنه يبقى الأساس: في البوسنة، كان مقاتلو «حزب الله» من جملة قوة إيرانية أُرسلت لكبح النفوذ التركي، مستفيدة من خَيار كلينتون "بإنشاء تحالف كرواتي - إسلامي لمواجهة الصرب، ما أدّى إلى تسعير حدّة الصراع القومي والديني. ونذكر هنا بعض الأحداث المرتبطة بهذا التدخّل:

ـ في ١٩٩٢/١١/١١، تمّت مصادرة طائرة إيرانية في مطار زغرب واكتشاف كميات ضخمة من الأسلحة كانت في طريقها للبوسنيين.

ـ في ١٩٩٦/٢/١٥، اقتحم رجال الكوماندوس الفرنسي شاليه ـ معسكر معزول في البوسنة، ليكتشفوا أنه مركز تدريب يزخر ببنادق للقناصة وقاذفات صواريخ ومتفجرات في زيّ لُعب الأطفال.

ـ في شهر شباط من عام ١٩٩٢، اعتقل ثلاثة إيرانيين من قِبل القوة الفرنسية التي أرسلها حلف شمالي الأطلسي.

تكرّرت تلك الحوادث ما بين سنة ١٩٩٢ و١٩٩٦ فأوقفت السلطات التركية باخرة إيرانية متوجّهة إلى سراييفو محمّلة بالأسلحة.

• بالإضافة إلى تدخله في حروب أهلية خارج النطاق الجغرافي للحدود اللبنانية (البوسنة والهرسك) وبعيدًا من محاربته إسرائيل متذرّعًا بتحرير الأراضي اللبنانية المحتلة، كان عهد نصرالله زاخرًا بالعمليات الأمنية المرتبطة باسم «حزب الله» والتي جابت العالم، ونذكر من هذه العمليات: تفجير السفارة الإسرائيلية في بوينس آيريس في الأرجنتين والتي أودت بحياة حوالى ٨٥ شخصًا. وكانت أعلى محكمة جنائية في الأرجنتين قد أنحت باللائمة، في نيسان الماضي، على إيران في الهجوم، قائلة إن جماعة «حزب الله» اللبنانية نفّذته استجابة لـ«تصميم سياسي واستراتيجي» من إيران.

وتنفي طهران التورّط في الهجوم وترفض تسليم مشتبَه بهم، ولم تجدِ أيِ تحقيقات سابقة ومذكّرات اعتقال من منظمة الشرطة الدولية "الإنتربول».

وبحسب قناة «france ٢٤» بتاريخ ٢٠٢٤/٤/٢٤ فقد طلبت الأرجنتين من الإنتربول توقيف وزير الداخلية الإيراني أحمد وحيدي، بتهمة ضلوعه في التفجير الذي استهدف مركزًا يهوديًّا في بوينس آيريس في ١٩٩٤.

• كما أن إيران و«حزب الله» اتُّهما بتفجير إرهابي في أبراج تابعة لشركة «أرامكو» النفطية في مدينة الخبر السعودية في حزيران ١٩٩٦ وقد تبنّى هذه التفجيرات مجموعة أطلقت على نفسها اسم «حزب الله الحجاز» وقد اتهمت الولايات المتحدة الأميركية إيران و«حزب الله» اللبناني بالضلوع في هذا التفجير.

في المحصّلة استطاع نصرالله بعد كل هذه الأحداث أن يُثبت وجوده كقائد أوحد للحزب ولم تعد الفرصة تسنح لأيٍّ كان على مخالفته في أي رأي، وكان لعماد مغنية المسؤول العسكري والأمني للحزب آنذاك الفضل الأكبر برفع قدسيّته وجعله القائد الخارق بالإضافة إلى الحمَلات الإعلامية التي جعلته بمقام الأنبياء والقديسين والأولياء خصوصًا بعد مقتل ابنه البكر هادي في مواجهة مع الجيش الإسرائيلي جنوب لبنان واحتجاز جثته لفترة لدى الإسرائيليين.

حلَّ العام ٢٠٠٠ وكانت هذه السنة مفصلية بالنسبة لـ«حزب الله» ولأمينه العام. فقد قام إيهود باراك (رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق) بتنفيذ وعده الانتخابي لجمهوره بالانسحاب من جنوب لبنان وطبّق القرار الأممي الرقم ٤٢٥،

تفجير الخبر، المصدر: موقع الشرق الالكتروني

الهتاف للـ«السيّد» من وراء شاشة، المصدر: RT

فغادر أغلب القرى والمدن الجنوبية المحتلة من إسرائيل، بعد تسليمها لجيش «لبنان الجنوبي» والذي ما لبث أن انْهار واستسلم من استسلم من عناصره ولجأ من لجأ إلى إسرائيل خوفًا من ردّات فعل «حزب الله» بعد الانسحاب الإسرائيلي الذي جاء مفاجئًا لأفراد هذا الجيش.

ودار جدل كبير حول ارتباط الأمر بالقرار الدولي الرقم ٤٢٥. ففي حين أن إسرائيل تعتبر أنها نفّذته بالكامل وكانت تضغط باتجاه انتشار الجيش اللبناني عند الحدود، وهو ما أيّده أمين عام الأمم المتحدة كوفي أنان في ١٦ حزيران ٢٠٠٠، رفض لبنان ذلك وبقي يطالب إسرائيل بالانسحاب من باقي الأراضي اللبنانية كمزارع شبعا وتلال كفرشوبا، أنظر/ي، كتاب تاريخ شيعة لبنان، الجزء الثاني من ١٩٥٩ حتى ترسيم الحدود البحرية اصدار «أمم».

إذَن، هي المرة الأولى التي يشعر بها نصرالله بنشوة النصر. فجمهور الحزب اعتبر أن هذا الانسحاب نصر للمقاومة الإسلامية في لبنان وما كان ليحدث لولا الضربات الموجعة التي تلقّتها إسرائيل من هذه المقاومة، في حين يرى آخرون أن مضمون الانسحاب بالإضافة إلى وعود باراك الانتخابية يجعله أقرب إلى صفقة سياسية قامت بها إسرائيل. ويرى محلّلون أنه وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي وانتهاء الحرب الباردة ونشوء خريطة سياسية عربية جديدة بعد حرب الخليج الثانية تكوّن اتجاه جمْعي للتفاوض السياسي بين العرب وإسرائيل، وبدا الحزام الأمني، كما وصفه «زئيف شيف» المعلق العسكري في صحيفة «هآرتس» مثل طَوق نجاة مثقوب ويشكّل عبئًا عسكريًّا تسعى إسرائيل إلى إنهائه، وكانت المفاوضات التي أطلقت في مؤتمر مدريد للسلام عام ١٩٩١ فرصة للانسحاب من خلال اتفاق يجري توقيعه، ولكن لم يتمّ التوصل إلى مثل هذا الاتفاق وتعثّرت المفاوضات.

وبحسب موقع «الجزيرة نت» في مقال نشر في ٢٠١٢/٣/١٥ فإن الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان كان يفسّر على أنه توسّع إسرائيلي يستهدف مصادر المياه وتكوين عمق جيواستراتيجي وجيوبوليتيكي، فهل تخلّت إسرائيل عن هذه الإستراتيجية؟ أم أن تكاليفها كانت أكثر من مكاسبها؟ ويرى محلّلون أيضًا أن الولايات المتحدة بدأت بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وحرب الخليج الثانية تؤدّي دورًا ستراتيجيًّا مباشرًا في المنطقة ولم تعد في حاجة إلى دور غير مباشر تقوم به إسرائيل لأنها غدَت أكثر قدرة على ذلك، ولم يعد دورها المباشر مُكلفًا ولا يواجه بتحدٍّ ورفضٍ كما كان الأمر في أثناء قوة الاتحاد السوفياتي وقدرته على المواجهة والمنافسة. ■

إحياء الشعائر الحسينية، الأصالة مقابل التوظيف السياسي
بريتال نموذجًا

عادل اسماعيل

تشكّل مظاهر إحياء أمر آل بيت النبي محمد(ص)، ولا سيما الإمام الحسين، وشعائرها وطقوسها؛ أحد أهمّ عناصر الجذب العقدي والوجداني والنفسي والمجتمعي الأساسية للمذهب الشيعي ونظامه الاجتماعي الديني. تلعب هذه المظاهر أدوارًا نوعية ومتعدّدة في تقوية هذا النظام وتأكيد هويته. تُعد المراقد والشعائر العنصرين الأكثر ارتباطًا بالوجدان الشعبي الشيعي والأكثر تأثيرًا في مشاعر الشيعة، سواء كان الفرد متديّنًا مقلّدًا للمراجع أم غير متديّن، أو إسلاميًا متزمّتًا أم علمانيًا متحرّرًا فكريًا، أو حتى بين المؤمنين والمشكّكين. بحسب ما يذهب إليه المفكر العراقي علي المؤمن.

وتتأثّر الشعائر الحسينية، كما كل الشعائر، بالعادات والتقاليد مما يزيد من درجاتها شِدَّة وضعفًا، فإنّ بعض الشعائر لها ارتباط بمظاهر الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد التي يتصف بها أهل أي منطقة؛ نظرًا للخلفيات الثقافية التي أَلِفها ذلك المجتمع. فهذه الأُمور أثَّرت فيها بشكل تدريجي، لا سيّما في الجانب الشكلي والصوَري للشعائر، والنموذج الواضح لهذه الأُمور ما نراه في الهند، فنجد أن بعض نماذج الشعائر الحسينية ـ غير المنصوصة ـ لها جذور في حياة الهنود الاجتماعية، وتعدُّ جزءًا من عاداتهم وتقاليدهم.

تاريخ نشأة الشعائر الحسينية:

لقد تعدّدت الآراء في نشأة الشعائر أو المآتم المنظمة والمقصودة، والتي اعتبرت هادفة في تسنين هذه الظاهرة وتثبيتها ونعرض منها الآتي:

نقل الشيخ عباس القمي في«الكنى والألقاب»: حكي عن تاريخ ابن كثير أنّه قال: «في سنة ٣٥٢ أمر معزّ الدولة أحمد بن بويه في بغداد في العشر الأُولى من المحرم بإغلاق جميع أسواق بغداد، وأن يُلبس السواد ويُقيموا مراسم العزاء. وحيث لم تكن هذه العادة مرسومة في البلاد، لهذا رآه علماء أهل السنّة بدعة كبيرة، وحيث لم يكن لهم يد على معزّ الدولة لم يقدروا إلّا على التسليم، وبعد هذا في كلّ سنة إلى انقراض دولة الديالمة الشيعة في العشرة الأُولى من المحرم من كلّ سنة يقيمون مراسم العزاء في كل البلاد، وكان هذا في بغداد إلى أوائل سلطنة السلطان طغرل السلجوقي».

إن الرأي السائد عند عدد من الباحثين هو أن ملوك بني بويه هم أول مَن قاموا بنشر شعائر عاشوراء في الوسط الشيعي. ولكن يظهر من بعض النصوص لمؤرّخي مصر، أن إحياء الشيعة ليوم عاشوراء في زمن الإخشيديين بمصر، سبقت عهدَي بني بويه والفاطميين أيضًا. كما أنّ هناك نصوصًا تفيد أن الشيعة كانوا يقيمون مجالس النياحة على الإمام الحسين(ع) قبل دخول البويهيين إلى بغداد، وإن كانت هذه المجالس تُقام سرًا وبالخفاء خوفًا من بطش الحنابلة. ولا شكّ في أن أيام عاشوراء أيضًا كانت تشهد إقامة مثل هذه المجالس.

ويظهر مما ذكره المؤرّخ ابن الجوزي حول تفاصيل إقامة ذكرى عاشوراء في كل من السنوات ٣٩٣هـ و٤٠٢هـ و٤٢٣هـ، أن أهم مراسم عاشوراء في بغداد في العهد البويهي كانت تتمثل بتعليق المسوح في الأسواق، وإقامة النياحة في المشاهد. ولا بد أنّ يكون مشهد الإمامين موسى الكاظم ومحمد التقي(ع) بمقابر قريش، الكاظمية اليوم، من أهمّ المشاهد الدينية التي كانت تُقام فيها النياحة والمآتم الحسينية في يوم عاشوراء، كما يظهر من بعض النصوص.

وفي ما يتعلّق بذكرى عاشوراء في القاهرة في عهد الفاطميين، فمن خلال نصوص المؤرّخين المصريين يمكن القول: إنّ مآتم ومراسم عاشوراء بهذه المدينة في العصر الفاطمي، كانت في بادئ الأمر تمتاز بالطابع الشعبي، ولكنها اتخذت في ما بعد طابعًا رسميًا، حيث كانت تُعرف بـ«سماط الحزن» في أواخر هذا العهد، وتُقام بحضور الخليفة والأمراء والأعيان والقاضي وداعي الدعاة، كما يظهر من كلام ابن الطوير.

أما في ما يتعلّق بذكرى عاشوراء في المدن الأُخرى، كالمدينة المنوّرة وحلب ودمشق، فليس لدينا تصوّر واضح؛ بسبب عدم وجود نصوص توضّح تفاصيل ما كان يُقام من شعائر. ولكن يمكن القول بشكل عام: إنّ ظاهرة إحياء ذكرى عاشوراء في المدينة قد عُرف من حين رجوع سبايا أهل البيت(ع) إليها، وأما في حلب ودمشق، فقد نشأت وترافقت بشكل كبير مع ظاهرة انتشار التشيّع. ويُلاحظ أيضًا المحورية المهمة مشاهد أهل البيت(ع) في إقامة مآتم عاشوراء، كقبة العبّاس بن عبد المطلب والأئمة الأربعة من أهل البيت(ع) في مقبرة البقيع بالمدينة المنوّرة، ومشهد رأس الإمام الحسين(ع) بحلب، ومشهد السيّدة زينب في دمشق.

التوظيف السياسي للشعائر الحسينية:

إن توظيف الخطاب الديني في الأزمات السياسية لطالما كان حاضرًا في المشهد السياسي الشيعي على مرِّ التاريخ، ويعتمد غالبًا على إثارة العاطفة ومحاولة تأجيجها ضمن سياقات سياسية بِرداء ديني.

هذا التوظيف ينبع من رغبة بعض الكيانات السياسية في إعادة تحشيد الشارع، واستعادة الجماهير، من خلال استغلال النزعة الطائفية، وهذه المحاولات ترتكز غالبًا على شهر محرّم، كونه الأساس الفعلي للخلاف السُني الشيعي على السلطة.

هناك تاريخ من التوظيف السياسي للشعائر الحسينية، ففي عهد البويهيين أصبحت الشعائر الحسينية تقليدًا رسميًا، فأُمِر الناس أن يقيموا الشعائر في الطُرُقات، وتسبَّبت في فتن طائفية كثيرة بعد تترُّس البويهيين مذهبيًّا، في ما بعد حرص الصفويون على مأسَسة الشعائر الحسينية، والعناية بها، لتمتين الداخل وتطييفه ضدّ العدو الخارجي المتمثِّل في العُثمانيين، والعدو الداخلي المتمثِّل في المعارضين، كالقزلباش وغيرهم، بوصفهم ـ أي الصفويين ـ قائمين على حفظ بيضة التشيُّع، وحُرّاسه، وشارك ملوكهم الناس في المآتم الحسينية العامَّة. ثمّ جاء ملوك القاجار فأوْلوا الطقوس والشعائر اهتمامًا منقطع النظير، أيضًا لتعزيز شرعيتهم المذهبية بين العامَّة، واهتمُّوا بعمارة مراقد آل البيت في العراق وعموم إيران؛ ما كان له أثرٌ كبير في عاطفة العامَّة. ويبلغ التوظيف السياسي ذروته في زيارة ناصر الدين القاجاري إلى كربلاء ووقوفه بجوار مرقد الحسين قائلًا: «نادَى الإمام الحسين في يوم عاشوراء، هل من ناصر ينصرني؟ أتى ناصرك، وهو واقف في حضرتك لنُصرتك».

ويكفي أن تسمع منادبهم وسبابهم لأفاضل بُناة الإسلام وخاصة الصحابة وحتى تكفيرهم بل إن توظيف آل البيت في هذه المهمة القذرة هو بدوره حطَّ منهم وتحقير اعتبارهم مجرد أداة وخدعة سياسية.

الاستحواذ السياسي على الديني مع التظاهر بالحرص على المذهب ينتج عنه الحرص على توظيفه السياسي وليس تحريره منه. ومن ثم فالحصيلة هي عدم التعامل مع علماء الدين بوصفهم مثل الأكاديميين يتمتعون بحرية الاجتهاد في النظر والعقد وبالجهاد في العمل والشرع.

ولسوء الحظ فالبحث الديني لا يعامَل بوصفه بحثا علميًا وعمليًّا بل هو يعامل دائمًا توظيفيًّا في السياسة إمّا صراحة بحيث ليس الدِّين إلّا أداة سلطان الأئمة والمرجعيات على العامة أو بصورة منافقة بتوسّط الفتوى و«علماء» السلطان المرْضي عنهم.

لعلّ توظيف الشعائر الحسينية، في عصرنا الحالي، متعلّق باستراتيجيا الثورة الخمينية التي تستعملها في تصدير الثورة وتنافسها وحروبها النفسية والفكرية للاستحواذ على التربية والحكم بالدغمائية المتّبعة...

ويكفي أن نتابع ما يحدث في العراق. فالبلد كان شبه علماني حتى إن الشيعة فيه كانت أكثر سكانه ماركسيّةً أو بعثيّةً، وإذا هم الآن سرعان ما عادوا إلى الخرافات الشيعية في أقلِّ من عقدَين فصاروا لا يعيشون إلّا بالمناحات والمنادب والاستعمال لهذيان أكثر رجال الدين دجلًا وجهلًا في تاريخ البشرية لكثرة كلامهم على معجزات الأئمة التي لا يصدّقها حتى الأطفال الرضّع. وقد ترى حتى المصريين واللبنانيين وفي سوريا في المقامات الشيعية في أوضاع لا يمكن أن يقرّها مسلم حتى لو كان عاميًّا، لأنها وثنية في أغلب مظاهرها.

استغلّت إيران مناسبة عاشوراء لتحقيق أهدافها السياسية والاقتصادية.

وعلى أراضيها، وفي العراق وسوريا ولبنان، شحنت أتباع المذهب الشيعي تارة للقتال من أجل المقامات المقدّسة وتارة للسياحة والاستثمار. وتحاول إيران التحكّم في السياحة الدينية الشيعية للمقامات في الدول العربية.

ويقول الخبير في الشؤون الإيرانية والجماعات الإسلامية أسامة شحادة إن «إيران تسعى من خلال السياحة الدينية إلى خلق ذريعة لوجود شيعي مكثف، يبدأ بالسياحة الدينية، ثم ينتقل إلى مرحلة شرعنة التواجد عبر بناء مؤسسات وحسينيات، واستقطاب سكان محليين بعد إغرائهم».

إبّان الثورة السورية التي عسكَرها النظام وحوّلها إلى حرب مذهبية بمشاركة «حزب الله» عسكريًّا فيها لدعم النظام وتثبيته، كان توظيف الشعائر الحسينية والشعارات العاشورائية هو الواجهة في إعطاء شرعية لتدخّل السيد حسن نصرالله في الحرب المندلعة في سوريا بحجة الدفاع عن المقامات الشيعية، مقام السيدة زينب والسيدة رُقيّة، كما تمّ ترويج الخرافات، كمشهد

عاشوراء في النبطية، من ارشيف د. علي مزرعاني

جرَيان الدم من الجدران في مقام السيدة خولة حزنًا على عمتها السيدة زينب المحاصَرة وغيرها من الحكايات التي تبيّن كذبها لاحقًا. وأذكر أن السيد حسن نصرالله تكلّم في إحدى خطبه العاشورائية عن عالمَين سنّيين هما القاضي أبو بكر بن العربي وعبد الرحمن بن خلدون، وهو لم يذكرهما بالاسم، لكنه لمّح إليهما تلميحَ اتهام معتبرًا رأييهما في مقتل الحسين تبريرًا لجريمة يزيد بن معاوية.

في حين أن اتهام هذين العالمَين لا مبرّر له سوى توظيف واقعة كربلاء في الحرب المذهبية الدائرة في سوريا آنذاك، حيث إن مقولة ابن العربي: «أن الحسين قتل بشرع جدّه» قد تبنّاها ابن خلدون وشرَحها في مقدّمته بما معناه أن الحسين(ع) كان من حيث السياسة أساء التقدير ولم يحسب موازين القوى. وليس معنى ذلك أن ظلم القوي مقبول، بل الواجب الإعداد للنصر عليه.

بلغتنا الحديثة: إنه الحسين(ع) ثار من دون توفير شروط نجاح الثورة. وفي الأعمال السياسية النوايا وحدها لا تكفي. فالإسلام لا يفصل بين الشرعية والشوكة شرطَي الحكم المستقرّ لأن الفصل بين الدين (الشرعية) والسياسة (الشوكة) خطأ لا يقرّه الشرع.

ذلك أن الحكم يقتضي أمرين: الشرعية والشوكة. ولا حكم إلّا بهما معًا .

ولما كان الحسين(ع) قد تصوّر أن الشوكة متوفرة ـ بعد أن كذب عليه مَن غرّروا به فلم يفهم ما الأحسَن له ـ خرَج. لكن من غرّر به من سلفٍ هم مَن يطالبون اليوم بثأره هم أنفسهم مَن دفعوه إلى التهلكة، فكانوا في الحقيقة هم قتلَته.

يعلم الجميع أنه لا يوجد بين السنّة من يمكن أن يُتهم بالحطّ من شأن آل البيت خلال كل التاريخ الإسلامي. فهم يعتبرون عليًّا خليفة راشديًّا. وهم يضعون ابنيه في المنزلة التي يضعهما فيها الرسول الأكرم. وهم يُنزلون الزهراء المنزلة التي كانت لها في قلب أبيها. وهم لا يُسلّمون بشرعية معاوية بل هو عندهم العلامة على نهاية الخلافة الراشدية. وهم يُجمعون على تفسيق يزيد. والأهم من ذلك كله أخيرًا أنهم لا يُوظفون آل البيت في معارك سياسية داخلية لتأجيج الحرب بين قبائل الأمة (بين بني هاشم وبني أميّة في قريش) أو بين شعوبها (الشعوبية بين العرب والفرس في الأمة) بل وضعوا نظريات ثورية لتحرير الأمة من أدوائها لكي تتمكّن من الاستئناف السويّ بعد الفتنة: نظرية عدم التأثيم التي حلّلها ابن خلدون في المقدمة.

تحميل جمهور المسلمين الحاليين مسؤولية ما لا يدَ لهم فيه، شيعة كانوا أو سنّة، لأن الذنوب لا تورّث والمسؤولية شخصية (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) هو إذن نوع من الإسقاط المرَضي الذي ينبغي أن يُعالج لئلا تذهب ريح المسلمين. ذلك أن البحث التاريخي يبيّن أن جمهور السنّة أقل مسؤولية من جمهور الشيعة في ما حصل لحفيدَي رسول الله. فهم لم يغرّروا بالحسين ولم يسعوا إلى إيصاله إلى ما نعلم ليتخلّوا عنه في معركة خاسرة

بحسابات فقه الحرب الإسلامية، فقهها الذي لا يحمّل نفسًا إلا وِسعها. والغريب أن هذا الحكم يصحّ كذلك على يزيد الثاني أو صدام حسين: فحزبه لم يكن سنيًّا بل هو يعدّ من منظور الفقه السنّي حزبًا خارجًا عن الدِّين بالإطلاق وغالبية مؤسّسي حزبه كانت بالأساس شيعية على الأقل في البدء. ثم إن كل جرائمه كانت ضد السنّة. ومع ذلك فلست أدري كيف بات صدام ممثلًا للسنّة التي عليها أن تدفع الحساب بديلًا عنه!

تاريخ إقامة الشعائر الحسينية في لبنان:

لم يُعرَف من تاريخ مجالس التعزِيَة العاشورائيّة لدى شيعة لبنان على امتداد الاحتلال العثمانيّ من ١٥١٦ إلى ١٩١٨، سوى أنّها كانت تُقرأ سرًّا في البيوت؛ بسبب منع العثمانيّين الطائفة الشيعيّة من إقامة شعائرها الخاصّة.

كانت تُقام الشعيرة سرًّا، لكنها كانت تتحوّل في بعض الأحيان إلى مجالس علنيّة، حيث كانت تُقام عاشوراء في المساجد والمنازل طيلة الأيّام العشرة الأولى من شهر محرّم.

يذكُرُ السيِّد محسن الأمين في سيرته، أنَّ المجالس كانت تُقام في عهد طفولته في الرُّبع الأخير من القرن التاسع عشر، وكان يُقرأ العزاء في اللَّيالي العشرة الأولى من محرّم من كتابٍ ضخمٍ، مؤلَّفُه من البحرين واسمه «االمجالس»، وفيه عشرة فصولٍ طويلةٍ، كلّ فصلٍ مُخصَّص لمجلسٍ، وقد كان المشاركون في هذه المجالس يتحادثون وهم يتحلَّقون حول الراوي.

أمّا في اليوم العاشر، فكان يُقرأ العزاء في كتاب «مقتل الحسين عليه السلام» لأبي مخنف؛ وهو من المؤرّخين الأوائل في تاريخ الإسلام. ثمّ تُتلى زيارة قبر الإمام الحسين عليه السلام، ثمّ تُمدّ موائد الطعام في المساجد، وعادةً ما يكون من الهريسة، الخاصّة بيوم عاشوراء. وبعد عودة الشيخ موسى شرارة من العراق عام ١٨٨٠، اعتمد كتاب مقتل ابن طاووس، بدلًا عن مقتل أبي مخنف، وأقام مجالس أسبوعيّة في بيته على مدار السنة.

في مطلع القرن العشرين، قدِمَت إلى النّبطية عائلاتٌ إيرانيّةٌ هربًا من نظام رضا شاه البهلوي، وبادر أحد الإيرانيّين، ويُدعى إبراهيم الميرزا إلى استصدار تراخيصَ من الخارجيّة العثمانيّة في اسطنبول بواسطة القُنصل الإيرانيّ في بيروت، حيثُ سُمح للإيرانيِّينَ فقط بإحياء مراسم عاشوراء، دون اللبنانيّين. لكن في العام ١٩١٩، بدأت هذه المراسيم تُقام بشكلٍ مُشترَكٍ وعلنيٍّ بين الإيرانيِّينَ والأهالي في النبطيّة، ثمَّ أخذ تضاعُف العدد ليشمل كلّ شيعة جبل عامل.

وظهرت الندبيّات باللغة الفارسيّة، وأخذت مسيرات «اللطميّة»، يتقدمها إبراهيم الميرزا، تجوب شوارع النبطيّة خلال الليالي التسعة الأولى من شهر محرّم، ثمّ بدأ «تمثيل» مصرع الحسين عليه السلام باللغة الفارسيّة، ومن بعدها باللغة العربيّة عام ١٩٢٦.

قال محمد بن سليمان التنكابني (كان صنّف كتابه عام ١٨٧٣): التمثيل من مخترعات الصَّفوية، ولما ظهر مذهب التشيّع في بلاد إيران، وحكم الصَّفويين أمروا الذاكرين بإنشاد مصيبة سيد الشُّهداء(ع)، لكن الناس لم تكن تبكي. لأن المذهب لم يترسّخ بعد في نفوسهم فاخترعوا التمثيل لعلَّ النَّاس تتألّم من مشاهدة مصائب سيد الشهداء(ع) وترقُّ قلوبهم عليه، وسمّي هذا العمل بالتعبئة، وهي بمعنى الاختراع أيضًا، وهذه التعبئة لم تكن موجودة في الأزمنة السابقة بالاتفاق.

كان الملّا محمد تقي البرغاني القزويني (١٣ الهجري)، المعروف بالشهيد الثالث «يمنع تمثيل حادثة كربلاء في مصيبة سيد الشهداء(ع)، وكان يمنع الغناء في المراثي، وإنشاد مصائب الأئمة».

إقامة الشعائر الحسينية في بريتال:

يتحدّث الحاج علي طليس أحد منظّمي الشعائر الحسينية في بريتال: «إن هذه المسيرة تأسست في بلدة بريتال عام ١٩٧٨، وليس لها أي انتماء سياسي أو حزبي منذ تأسيسها وإن كان صاحب فكرة هذا الموكب مجموعة من المنظَّمين في «حركة أمل» آنذاك الذين كان يُطلق عليهم اسم الجناح الديني في «حركة أمل»، وهم شباب بريتال بالتحديد الذين كانوا من مؤسّسي «حزب الله» قبل انسلاخهم عنه بعد ثورة الجياع، حين اطّلعوا على هذه الشعيرة التي كانت عادة متبعة عند شيعة العراق في إحدى المجلات العراقية ولم تكن هذه العادة موجودة في لبنان إذ كان يكتفي شيعة لبنان في البقاع بسماع المصرع أي قراءة مقتل أبي مخنف أو الذهاب إلى الجنوب لمشاهدة مسرحية الطفّ في النبطية، وما زالت لا تنتمي إلى أي جهة.

وأوضح أيضًا أن هذه المسيرة العاشورائية لم تكن موروثًا تاريخيًّا أو عادةً اجتماعية، وإنّما انطلقوا في إحيائهم لهذه الذكرى من منطلق ديني؛ لأنّ هذه المسيرة مظهر لمودّة أهل البيت ومحبّتهم.

وأُخبرنا أن المسيرة بدأت في اليوم الأوّل من محرّم عام ١٩٧٨ بسبعة أشخاص وجاء اليوم العاشر من العام نفسه كان المشاركون من جميع أهالي بريتال كبارًا وصغارًا، وكانت الشعارات التي يردّدونها قصيرة ومتعلّقة بواقعة كربلاء ومظلومية الحسين».

ما يميّز هذه المسيرة أنّ القيّمين عليها حتى اليوم هم المؤسّسون الذين حرصوا كل الحرص أن لا يتسرّب إليها البدع الجديدة والوسائل العنيفة في إظهار الحزن على أهل البيت عليهم السلام.

فقد عمل القيّمون على المسيرة على رفض الممارسات المتخلّفة وغير الحضارية التي تجعل من الشيعة أضحوكةً للتندُّر والاستهزاء كالضرب بالزناجيل أو التطبير وغيرهما من الطقوس العنيفة والغريبة؛ واكتفوا بالمسير وترديد شعارات دينية أو شعارات متعلّقة بالصراع مع إسرائيل.

كما رفض القيّمون عليها بثّ الأكاذيب والأخبار المختلقة على أهل البيت، أو نشر السخافات التي لا يقبلها العقل السليم، فكانوا يطّلعون على الشعارات لتصحيحها وعلى الندبيات التي يردّدها الرواديد، وعلى خطب مجالس العزاء التي يذكرها قرّاء العزاء على المنبر الحسيني في حسينية بريتال.

كان من أولويّات المسيرة أو إقامة الشعائر الحسينية في بريتال هو المحافظة على إحياء ذكرى عاشوراء في نمطها الشَّعبي التقليدي من أجل العمل على صيانتها من الشوائب التي لا تنسجم مع المفاهيم الإسلامية الأصيلة على المستوى الفكري والأخلاقي والشرعي.

لا بدّ هنا من ذكر أنّه مع اندلاع المعركة المذهبية في سوريا التي استخدم فيها المشاركون كلّ الأدوات الطائفية والشعبوية لحشد المقاتلين وتشريع القتال وضمان تأييد شيعة لبنان من خلال التوظيف الإيديولوجي لواقعة كربلاء واستشهاد الإمام الحسين(ع) في دخول أتون الفتنة الطائفية، أصدر القيّمون صحيفة على أبواب شهر محرم الحرام، ومع إقامة الشعائر الحسينية لتنبيه المشاركين إلى بعض الأمور المنكرة التي تمارَس في ظلّ إقامة الشعائر الحسينية.

• **أولًا:** خلال المسيرة الدموية للفتن والحروب التي دارت بين المسلمين، بحكم الصراع على السلطة، واستخدام كل ما له علاقة بالدِّين والمذاهب في هذه المعارك، لم يسلَم دم المظلوم في كربلاء ولا منبره من استخدامه، لتحريض المسلمين على بعضهم، وتأجيج الأحقاد، واستنفار الغرائز، واستباحة الدماء، وشحذ همَم المقاتلين في ساحات حروب الفتن.

ولا زالت المراسم الحسينية في الكثير من دلالاتها وتوجيهاتها تعمل على التحريض الطائفي والمذهبي، وبدل أن يخرج المسلم من مجلس العزاء مفعَم بتقوى الله، وكلّه غيرة على الإسلام والمسلمين. تراه يخرج وهو يتلمّظ غيظًا وحنَقًا على جمهور المسلمين من أبناء السنّة، وكأنهم هم مَن قتل الإمام الحسين، وحارب الإسلام، بينما كلنا نعرف أن جمهور المسلمين سنّة وشيعة يرى مودّة أهل البيت فرضٌ من الله، وطاعتهم هُدى، والكثير منهم كما في مصر وغيرها من بلاد المسلمين يقيمون العزاء على الإمام(ع) ويتفجّعون لمصرعه.

• **ثانيًا:** للأسف الشديد تحوّل المنبر الحسيني بشكلٍ عامّ ـ إلّا ما رحم ربي ـ إلى حفلات كذب على الله ورسوله وأهل البيت، تُروى من فوقه أقاصيص، وحكايات من محض الخيال. ويُنقل عن رسول الله وأهل بيته الكثير مما لم يصدر عنهم، أو يقع منهم، حتى ليظنّ بسطاء الناس أن هذه الحكايات والروايات صحيحة ومعتمدة.

ويذهب المسلم ليشارك في مجلس العزاء الحسيني قاصدًا الثواب والأجر وإذ به يشارك في حفلة كذبٍ آثم، ثم لا تجد من ينكُر ذلك، أو يعترض عليه، رغم كونه حرام بيّن، وضرره على الإسلام وأهل البيت لا يُخفى على أحد.

فإنّ الجلوس تحت منابر الكذابين، والاستماع إليهم إغراء لهم، وتشجيع على الإثم. والمجالس التي هذا شأنها مجالس يحارب فيها الله ورسوله وأهل البيت، فإن إحياء ذكر آل محمد لا يكون بالقول الكاذب وإنما بصدقه، فإنّ الكذب يُميت ذكرهم، ويُبعد الناس عنهم، ويمحو أمرَهم، رحم الله من أحيا أمر محمد وآل محمد بصادق القول لا بكاذبه.

• **ثالثًا:** يمارس تحت عنوان التفجيع على الإمام الحسين وأهل بيته بعض أنواع العذاب الجسدي، الذي يضرّ بسمعة أتباع أهل البيت، وينفّر الناس منهم، ومن مذهبهم، ويقدّم للمسلمين ولغير المسلمين صورة مرفوضة عن مذهب أهل البيت وأتباعهم تتسبب في إبعاد الناس عن نهجهم ومذهبهم وهو مما يدخل في دائرة مقاصد الآية الكريمة {أرأيت الذي ينهى عبدًا إذا صلّى}. ومما قصده الإمام الصادق(ع) حينما قال: لا تكونوا شينًا علينا.

• **رابعًا:** برزت في السنوات الأخيرة أساليب آثمة في النواح على أهل البيت، ومدحهم في مناسبات وفيّاتهم ومواليدهم، أُدخلت هذه المناسبات في سباق مع مجالس الطرب والغناء، سواء في استعمال الآلات الموسيقية، والألحان، والاختلاط، وفي ما تعارف عليه أهل الفسق من حلقات الطرب وحركاته، وقد شكل حضور مَن هم في سمت أهل الشرع والعمائم هذه الحفلات، وعدم النهي عنها، ونشرها عبر الفضائيات التي يديرها من يُتوقَّع منه أن لا يتجاوز حدوده الشرعية قناعة لدى الجهلة بجواز ذلك وأنه مما يسمح الشرع به ويثيب الله عليه. وهو في الحقيقة من بلاء آخر الزمان الذي يصبح فيه المعروف منكرًا والمنكر معروفًا كما ورد عن رسول الله(ص).

عاشوراء وحشد من الصور، المصدر: جريدة النهار

• **خامسًا:** كثيرًا ما نشاهد رجالًا ليس لهم علاقة بالدِّين والإيمان، وهم أبعد ما يكون في مسلكهم ومنطقهم عن الإسلام وأهل البيت، يستغلّون المناسبات الحسينية لجمع الناس، ومخاطبتهم من على المنبر الحسيني لتضليلهم، وإبعادهم عن دين الله، وكأنهم يكمّلون ما بدأه يزيد بن معاوية في كربلاء.

والجمهور الحاضر في هذه المجالس أيضًا لا يُدرك أنه يشارك في محفل يحارب فيه الإمام الحسين(ع)، وفكره، وأن المشاركة في هذه المجالس لا تدخل في دائرة إحياء ذكر أهل البيت، وإنما في دائرة إماتة ذكرهم وذكر جدّهم صلوات الله عليه وعليهم.

ومَن عاش قد يرى أشكالًا جديدة من هذه الأعمال المنافية للشرع الشريف، والمعادية لأهل البيت والتي تُمارس باسمهم، وعلى منابرهم.

إنّ بعض ما نسمعه، ونراه على منابر أهل البيت مما حرّمه الله عزّ وجلّ يدخل في دائرة الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، ويُبعد الناس عن أهل البيت، وفكرهم، وجهادهم، ويُحرم المسلمين وغير المسلمين من التعرّف على سيرتهم، وجهادهم، ويجعلهم بنظر الآخرين زعماء لطائفة صغيرة منبوذة، وجاهلة تصدّق الأكاذيب، ولا تتورّع عن المنكرات، وفي ذلك كل الإساءة لرسول الله(ص) ودينه وآله الكرام، وهو أعظم على الإمام الحسين(ع) مما أقدَم عليه يزيد بن معاوية في كربلاء.

ولهذا نلفت نظر الأحبة المؤمنين الكرام إلى أن الإصرار على هذه الممارسات التي تُشين وتُضر، وعدم المبالاة بالآثار المترتبة على ذلك عند الله، وبين الناس، يخرج الشيعة أو مَن يقبل منهم بهذه الأعمال عن دائرة الأمّة الملتزمة بالشرع الشريف، والحريصة على دعوة الناس إلى الله بالحكمة والكلمة الطيبة، ويدخلهم في دائرة الطائفة والقبيلة التي تجمعها العصبية الجاهلية، والتي تستخدم ما تحمله من عقائد في خدمة الطائفة والقبيلة ومصالحها الدنيوية، وتسخّر الدِّين لخدمة التنافس بين الدول والقوميات والطوائف، كما هو شأن أغلب أو كل الدول العربية والإسلامية اليوم، وهو ما أضلَّ الأمم السالفة وأهلكَها من قبلنا.

ولا إشكال أن ما هذه نتائجه هو من أكبر المحرّمات، التي يجب تجنّبها، والنهي عنها، لهذا يجب على أخواننا المؤمنين حفظهم الله:

• **أولًا:** أن لا يقبلوا بكل المظاهر الغريبة عن الإسلام والظالمة لأهل البيت(ع) التي تمارَس في المراسم الحسينية.

• **ثانيًا:** عليهم أن يعترضوا على مَن يمارسها، ويقبَل بها، يلفتوا نظر العاملين في هذا الميدان إلى حرمة ما يفعلون، وإلى حجم الأضرار الناتجة عن ذلك، وما يلحق أهل البيت(ع) من ظلم جرّاء هذه الأعمال.

وعليهم أن يتجنّبوا مجالس الكذابين، لأنه ليس تحت منابرهم إلّا الإثم والإساءة لأهل البيت(ع)، وعليهم أن لا يشاركوا مَن يريد أن يستغل المناسبات الحسينية لأغراض دنيوية آثمة، ليس لها علاقة بأهل البيت ودين جدّهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، لأن المشاركة في مثل هذه المحافل إماتة للحق وأهله وتأييد للباطل الذي حاربوه.

وأخيرًا فإنّ فكر الإمام الحسين(ع) ودمه الطاهر ليسا للتحريض على الفتن بين المسلمين، وتمزيق صفوفهم، وإضعافهم في مواجهة أعدائهم الذين يحتلون بلادهم، وإنما كان ولا يزال وسيلة لوحدة الصف، وجمع الكلمة في سبيل الله، ونبذ الفتن، وللدفاع عن دين الله وعن المسلمين، وهذا ما يجب أن تحرص عليه المنابر الحسينية وتلتزم به. ■

الجيوبولتيك الإيراني وحصّة لبنان منه

أحمد مطر

يُعرف علم الجيوبولتيك بأنه دراسة الصراع على الكيانات الجغرافية ذات الأهمية الدولية، مثل الأماكن والمناطق والأقاليم والشبكات. تسعى الدول من خلال هذا العلم إلى تحقيق مكاسب سياسية متنوّعة عبر التحكّم بهذه الكيانات.

الجيوبولتيك الإيراني بشكل عام

يمكن القول إن الجيوبوليتيك الشيعي، كما يحدّده دكتور فراس الياس، والذي سوف نعتمد في قسمنا الأول من هذه المقالة على النتائج التي توصّل إليها، هو مفهوم تطوّر في القرن الحادي والعشرين داخل العقل الإيراني، حيث صاغ الفكر الاستراتيجي الإيراني العديد من نظريات التمدّد والهيمنة استنادًا إلى القوة الجيوبوليتيكية الإيرانية. يربط هذا المفهوم بين العديد من المجالات الجيوستراتيجية الحيوية للمجال الحيوي الإيراني، والتي يمكن تصنيفها إلى خمس فئات: دول المحيط الشيعي؛ دول المجال الحيوي الشيعي؛ دول تحت تأثير سياسة التشيُّع؛ دول تحت تأثير الطرُق الصوفية ودول الشتات الشيعي. يشكّل هذا المفهوم هدفًا استراتيجيًّا لطالما سعَت إيران لتحقيقه، وهو مدعوم بفكرة ولاية الفقيه التي تهدف إلى ربط المركزية الشيعية العالمية بإيران.

بدأ تشكُّل الجيوبولتيك الشيعي مع انتصار الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ بقيادة آية الله الخميني. وقد ساهمت الثورة الإيرانية ونشوء «حزب الله» اللبناني في وضع الجغرافيا السياسية الشيعية في صدارة المشهد السياسي الإقليمي والدولي. الهدف من ذلك كان تشكيل حركة شيعية عابرة للحدود مرتبطة بإيران. بعد الاحتلال الأميركي للعراق عام ٢٠٠٣، عملت إيران على تشكيل خريطة شيعية متميّزة عن الخريطة السنّية في العالم الإسلامي، رغم التحديات الكبرى التي واجهتها، مثل تصاعد الصراعات الطائفية والمذهبية.

انتصار الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ كان بداية لتحوّل كبير في الفكر الاستراتيجي الإيراني. ازدهرت الطروحات الجيوبوليتيكية للخميني واكتسبت قوة سياسية في إيران، نظرًا لموقعها الجيوبوليتيكي المميّز واحتياطياتها الهائلة من الطاقة، مما جعلها مركزًا للعالم الشيعي. يرتبط مفهوم تصدير الثورة بعالمية سلطة ولاية الفقيه، التي تسعى لبسط نفوذها على الأمة الإسلامية جمعاء، دون التقيّد بالقوانين الدولية أو احترام الحدود.

التركيز على الهوية الشيعية العابرة للحدود الوطنية، وتفاعلها مع إيران كمركز للجيوبوليتيك الشيعي، وفّر رافعة أساسية لإيران في سياستها التوسعية. في منطقة الشرق الأوسط، تعرّضت الهويات العابرة للحدود الوطنية للخطر، مما حدَّ من قُدارت الدولة فيها، بحيث أصبحت الهوية الشيعية اليوم قادرة على تغيير النظام الإقليمي عبر نشر هويات مذهبية جديدة في العالم الإسلامي عن طريق سياسات التشيُّع.

ويمكن القول هنا إن هناك ثلاثة عوامل أسهمت في إحياء الشيعة في منطقة الشرق الأوسط، وهي: أولًا تقوية الشيعة في لبنان والعراق؛ وثانيًا تقوية الشيعة الآخرين في السعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة وثالثًا: صعود إيران السياسي والمذهبي. هذه العوامل الثلاثة عزّزت القوة الشيعية في الشرق الأوسط، ولعبِها دورًا في معادلاتها الإقليمية والدولية، إذ أصبحت هناك علاقة منفعة متبادلة بين صعود مكانة إيران السياسية وأدوار حلفائها في منطقة الشرق الأوسط، وهو ما عزّز دور الهوية الشيعية في الساحة السياسية الإقليمية والدولية.

في ظلِّ التحولات في نمط توزيع القوة في الشرق الأوسط، زادت جهود الحرس الثوري الإيراني لتشكيل حركة شيعية عابرة للحدود تتألّف من جماعات متشدِّدة في الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا. ثورات الربيع العربي، والأحداث في سوريا والبحرين، وصعود تنظيم الدولة في العراق، والتدخُّل العسكري بقيادة السعودية ضد الحوثيين في اليمن، ساهمت جميعها في تعزيز الهوية المذهبية الشيعية عبر وسائل التواصل الاجتماعي والأقنية الفضائية الشيعية. رغم أن المذهب الشيعي محوري في السياسات الإيرانية الداخلية، إلّا أن بصماته في الاستراتيجية الإيرانية الخارجية أقلُّ وضوحًا، حيث الدِّين هو عامل واحد من بين عدة عوامل تؤثّر على السلوك الخارجي الإيراني.

التوسّع نحو لبنان

شكّل انتصار الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ نقطة تحوُّل كبيرة في الفكر الاستراتيجي الإيراني باتجاه لبنان، فعملت على عسكرة الطائفة الشيعية، وفي هذا المجال لا بدَّ من التذكُّر أنه في حقبة النظام الملكي، جرَت محاولتان خجولتان لعسكرة الطائفة الشيعية في لبنان عبر «حزب الطلائع ـ رشيد بيضون» و«حزب النهضة ـ أحمد الأسعد»، لكنهما لم ينجحا. أما المحاولة الثالثة والنوعية فقد كانت مع السيد موسى الصدر، الذي أسّس حركة «أمل».

منذ وصول الخميني إلى السلطة في عام ١٩٧٩ وتكريس نظرية «الوليّ الفقيه»، لم تدَّخر دولة الملالي جهدًا في محاولاتها لنشر مشروعها الإقليمي التوسّعي ذي البُعد الطائفي. استثمرت إيران الكثير من مواردها وأموال الشعب الإيراني لإنشاء أذرع أيديولوجية في العديد من الدول، خصوصًا في لبنان من خلال «حزب الله»، الذي يتبع توجيهات قادة الحرس الثوري الإيراني بعيدًا عن الولاءات الوطنية.

اتبعت إيران استراتيجية مستندة إلى تقليد الوليّ الفقيه وقائد الثورة الإيرانية، الخميني، الذي أعلن في عام ١٩٨٠ أن «الجمهورية الاسلامية الإيرانية سوف تعمل بجهد من أجل تصدير ثورتها للعالم، وأنه بمقدورها تحدّي العالم بالأيديولوجية الإسلامية. وأنها لا تسعى إلى تصدير ثورتها إلى كل الدول الإسلامية فحسب، بل إلى كل الدول حيث يوجد مستكبِرون يحكمون مستضعَفين». من خلال هذه النظرية، ترى إيران نفسها مركزًا للعالمين العربي والإسلامي.

بالإضافة إلى ذلك فإن إيران لا تحرّكها فقط فكرة تصدير الثورة إلى دول الجوار، بناءً على فكر الخميني أو الدستور الإيراني، بل تعتمد في الأساس على فكرة أيديولوجية يدعمها النظام الحاكم، تتمحور بشكل كبير حول البراغماتية والمصلحة الوطنية. بمعنى أن إيران لا تتصرف بدافع الحماسة الأيديولوجية فقط، بل محرِّكها الرئيسي مرتبط بأمنها القومي أكثر من مجرّد تصدير الأفكار الثورية إلى جميع دول المنطقة.

رؤية أخرى تُبرز الفكرة الطائفية الإيرانية بجانب البراغماتية الخاصة بالأمن القومي، عبر استخدام الأذرع الطائفية لتوسيع نفوذها الإقليمي، وأبرز هذه الأذرع هو «حزب الله» اللبناني. كان لإيران دور رئيسي في تأسيس «حزب الله»، حيث دعمت الحزب ماديًّا وعسكريًّا ليظهر كممثّل للشيعة في لبنان، مما مكّن إيران من تكوين قوة شيعية في المنطقة.

في سياق تكريس دور «حزب الله» في لبنان، خاضت إيران في لبنان صراعًا مع سوريا (صراع أمل وحزب الله) لضمان السيطرة. وكذلك خاضت صراعًا في سوريا التي تُعتبر بالنسبة لإيران ذات أهمية جيوسياسية واستراتيجية كبيرة، إذ تُعدُّ طريق الإمداد الرئيسي لتزويد الحزب بالأسلحة والصواريخ والمعدّات. لذلك، بعد عام ٢٠١١، حاولت إيران استنساخ تجربة «حزب الله» في سوريا من خلال دعم قوات بشار الأسد ضد المعارضة المسلحة، وإعطاء الحرب طابعًا مذهبيًّا عبر إدخال «حزب الله» في المعارك ونشر خطاب مذهبي. كما سعَت إيران إلى استقطاب أكبر عدد ممكن من أبناء الطائفة الشيعية للقتال في سوريا، مما زاد من حدّة الانقسام السياسي في لبنان.

الظاهرة الشيعية تحمل أبعادًا جيوبوليتيكية، حيث تتشابك الجغرافيا والسياسة والسلطة. الجغرافيا الشيعية، الممتدّة عبر إيران والمجتمعات الشيعية، تمنح إيران دورًا مركزيًّا في المنطقة. سياسيًّا، التشيع يحمل أفكارًا وعقائد سياسية واضحة، ما أدّى إلى تنمية دور سياسي قوي للشيعة، وخاصة في إيران. السلطة، من ناحية أخرى، ترتبط بالدور السياسي، حيث يسعى الشيعة لاستعادة سلطة مفقودة.

الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ كانت محاولة لبناء هيكل سياسي له امتدادات جغرافية خارج حدود إيران. إيران سعَت إلى التأثير في الحركات السياسية والدينية في أجزاء مختلفة من العالم، بما في ذلك العراق ولبنان واليمن. بعض الحركات في العالم السنّي اتخذت موقفًا ضد البنية الشيعية، في حين تماهى بعضها معها انطلاقًا من وحدة الهدف والمشروع. ■

أعلام «المحور الإيراني»، المصدر: موقع بروكينكس